
صالح مرسي
سامية فهمي
الجزء الأول
هذا الكتاب
«سامية فهمي» هذه الفتاة ذات الكبرياء الخاص والعاطفة المتأججة والذكاء اللماح، أحبت بكل خلجاتها شاباً طموحاً وواجهت رفض الأسرة وفشل حبيبها بإصرار على الوقوف بجانب الحبيب حتى يحقق النجاح . . . والشاب الطموح يسافر إلى أوروبا بحثاً عن الثروة والنجاح فيسقط في براثن أخطر شبكة تجسس إسرائيلية في أوروبا . . . ويلتقي الحبيبان ومظاهر النجاح بادية على الحبيب. وفي غمرة فرح سامية فهمي بنجاح الحبيب تلحظ في سلوكه ما يريب، ويساورها الشك في علاقات الحبيب عندما يحاول استدراجها ليجندها في شبكة التجسس الإسرائيلية . . .
وتواجه سامية فهمي أخطر صراع . . . لكنها لا تتردد لحظة في الاختيار، فالأمر يتعلق بالحب الأكبر . . . بالوطن . . . بمصر، مصر التي تعيش في كل ذرة من كيانها . . . وتحمل سامية فهمي شكوكها إلى رجال المخابرات المصرية وتكتشف أنهم يعرفون الكثير عن هذا الحبيب الخائن وأنهم يتبعونه لكشف الشبكة الإسرائيلية الخطيرة . . . وتصر سامية فهمي أن تشارك في أخطر صراع ضد المخابرات الإسرائيلية وضد حبيبها وخطيبها - الخائن - وتُوقِعُ بالخائن وتكشف أخطر شبكة تجسس إسرائيلية بعد صراع مرير تحفه المخاطر الرهيبة في كل لحظة . . . وعندما تتابع - عزيزي القارئ - مع قلم الكاتب الكبير صالح مرسي الصراع الرهيب لسامية فهمي فسوف تحس بالشموخ كمصري وكمصري لأن الأمة المصرية تنجب مثل هذه الفتاة سامية فهمي
مكتبة مدبولي الصغير
ميدان سفنكس - المهندسين
MADBOULY
EL - SAGHIR
Mohandissin

من ملفات
المخابرات المصرية

أعنف صراع بين العاطفة والواجب

سامية فهمي

سلمت خطيبها - الخائن - للمخابرات المصرية
وكشفت أخطر شبكة تجسس إسرائيلية في أوروبا

صالح مرسي

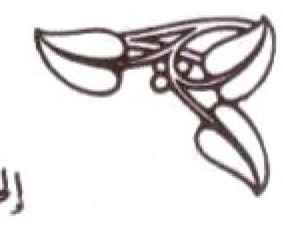


القاهرة

الطبعة الأولى

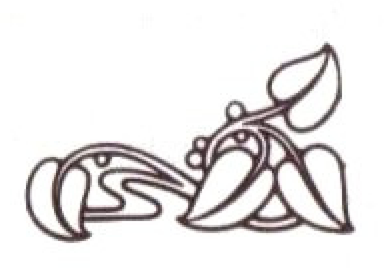
١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

مكتبة مدبولي الصغير - ميدان سفنكس - المهندسين - القاهرة



إلى الجيل الجديد

عساه أن يجد في جيلنا بعضاً من أحلامي!



كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزي القارىء .

استطاعت الدعاية الصهيونية أن تزرع اليأس في نفس الإنسان العربي وفكره بواسطة الإعلام المزيّف والأخبار الملفقة . وصوّرت له رجل المخابرات بأنه لا يقهر وأنه الوحيد الجدير بحكم الأرض ومن عليها .

وكانت رواية « الحفار » لتكشف عن أصالة الإنسان المصري ، بحضارته وتراثه وإيمانه ، وأنه قادر على تحقيق النصر على الصهاينة . وجاءت رائعة الأستاذ صالح مرسي « رأفت الهجان » لتصب في المجري عينه ، ولتثبت هشاشة الادعاء المزيّف الإسرائيلي .

وها نحن ـ عزيزي القارىء ـ نضع بين يديك رواية تشكل إسفيناً آخر في صرح العدو ، إسفيناً يهدم أسطورة التفوق المزعوم .

« سامية فهمي » اسم قد لا يعني لك في البداية أية أهمية تذكر ، لكنها سوف تهز مشاعرك ، من خلال واقعة مثيرة . فقد عاشت أحداثها وتفاصيلها بكل لحظاتها ، بل كانت محور الحدث ونواته .

صراع بين واجبها الوطني وبين حبها الدفين . حبها الذي ملأ كيانها وعاشت من أجله ، وواجبها الوطني الذي لا حياة لها بدونه وقد ترعرع ونشأ مع كل نسمة من نسماتها وكل ذرة من كيانها . وبدون تردد ترجح كفة الوطن الغالي الحبيب .

ها هي « سامية فهمي » تكتشف خيانة خطيبها وحبيبها ، وتتجه إلى رجال المخابرات المصرية لتجد أنهم يعلمون تفاصيل كثيرة ، وأنهم ساهرون على أمن الوطن وسلامته تمد يدها لهم لتساهم بدورها في واجب حماية الوطن والإنسان ، ترمي عواطفها جانباً ، تسلم خطيبها للمخابرات المصرية ، تكشف عن أخطر شبكة تجسس إسرائيلية في أوروبا .

خدعت « الموساد » التي عملت وتعمل للقضاء على الفكر والأخلاق ، والتي دمرت حياة الكثير من الشباب مستخدمة كل الوسائل .

كيف حدث هذا ؟ وما هي التفاصيل ؟ وكيف استطاعت « سامية فهمي » من القيام بواجبها تجاه أهلها ووطنها ؟ . . .

هذا ما ستعرفه ـ عزيزي القارىء ـ عند مطالعتك هذه الرواية ، وسترافق أحداثها وتعيش أخطر وأعنف صراع بين الحب والواجب ، وأترك بين يديك دليلاً آخر على وهن العدو ، وأن الإنسان العربي رمز للبطولة والفداء .

محمد مدبولي

الفصل الأول

صباح يوم خانق

« المخابرات من فضلك يا أسطى ! »

رماها سائق التاكسي بنظرة هي مزيج من الغضب والدهشة والإحتجاج . . . ولم تأبه لنظراته ، دلفت إلى التاكسي وكانت تعلم أنها وضعت الرجل في موقف لا يستطيع التراجع عنه . . . اندفعت السيارة تخترق شوارع حي جاردن سيتي في سرعة عصبية . . . تمتم الرجل بصوت مسموع وهو يزفر :

« يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم ! »

« معلش ، حقك علي » !!

هكذا قالت معتذرة فرماها الرجل ، في مرآة السيارة المعلقة أمامه ، بنظرة تحمل ألف سؤال ، لكنها لزمت الصمت ، وكانت تعذره . . . هي نفسها أصيبت بما يشبه الشلل عندما قال لها « أحمد مختار » إن لديها موعداً في « المخابرات » في التاسعة صباحاً ، هتفت في محاولة فاشلة لاستجلاب المرح :

« تسعة الصبح ؟! . . . ومين اللي حايصحى لهم بدري كدة ؟! »

« لازم تصحي يا سامية ! »

كانت الجملة واضحة . . . وكانت أيضاً صارمة !

« فيه حاجة يا أستاذ أحمد ؟! »

« عارفة مبنى المخابرات فين ؟! »

أيقنت أنه يهرب من الإجابة . . . هكذا هو منذ أن جاءهم رئيساً للتحرير ،

يقود الحوار والحديث كربان يعرف مسالك سفينته ، سمعت عن حياته الكثير ، ضابط سابق وفدائي تحدثت عنه مدن القناة وعرفته معسكرات الإنجليز قبل الثورة . . . تبدو حياته وكأنها طوابق متتالية من الطلاسم . . . لم تكن تحبه كثيراً فلقد كان غموضه يؤرقها ، لكنها كانت تحترمه دائماً ، وأعجبت به أحياناً . . . عندما اقتربت منه قليلاً بعد شهور قضاها معهم في المجلة ، أذهلها أنه يعرف عن العمل الصحفي أكثر مما تصورت وأكثر مما أشيع عنه . . . أعجب ما كان فيه أنه لم يكن من هذا النوع من الضباط الذين يشعرون أنهم امتلكوا ناصية الأمور ، كان يعطي لعمله كل وقته . . . خافت الصوت هو ، رقيق البدن ، هامس الملامح ، متبتل في حب هذا البلد !

عندما عادت بما عادت به من الخارج وعندما تصاعدت شكوكها يوماً بعد يوم . . . كان هو أول من سألها عما بها ، لم تكن تراه أو تلتقي به خارج المجلة . . . في لحظات اليأس القاتل والحيرة المدمرة ، كانت تشعر وكأن نظراته تنفذ إلى نخاعها . . . هل كان يعرف شيئاً ؟! . . . هو لم يطلب منها أن تحكي له أو تقص عليه ما حدث في الخارج أو ماذا فعلت . لكنه كان الوحيد الذي تحدثت عيناه بمعرفة غامضة . . . وعندما سدت أمامها كل الطرق ، وعندما قررت أن تواجه الأمر بوضوح ، بحثت حولها فلم تجد سواه . . . حتى « فريد السباعي » زميلها وصديقها ومدير تحريرها ورئيسها المباشر ، فريد الذي لم يُخْفِ عنها حبه وغرامه وقبل منها كل شيء في صمت وتفهم . . . فريد نفسه لم يصل إليها ، فقط . . . كان يبدو حزيناً لما انتابها من سهوم وشحوب .

حتى جاءت ليلة جفاها النوم ، أرّقها أمرها وعذّبها ، فلم تجد إلاّ أن ترفع سماعة التليفون ـ وكانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل ـ وتطلب أحمد مختار في البيت !

كان صوته صاحياً منتبهاً ، وعندما طلبت منه موعداً ، تعالت على الطرف الآخر ضحكته :

« إنتِ محتاجة تطلبي مني ميعاد يا سامية ؟! »

« أيوه . . لأني مش عاوزة أشوفك في المجلة ؟! »

مرت لحظة صمت خاطفة ، قال بعدها :

« طيب إيه رأيك لو فطرنا سوا بكره ! »

« فين ؟! »

« في البيت عندي ؟! »

... ...

... ...

في الصباح ذهبت إليه ، كانت هذه هي المرة الأولى التي تدخل فيها بيت رئيس التحرير ، استقبلتها زوجته في ترحاب غير مصطنع ، كانت هذه هي المرة الثانية التي تلتقي فيها بـ « وفية حسين » ، قالت لها مداعبة وهي تحاول أن تصنع مرحاً جافاها منذ أسابيع !

« لسة رأيي يا مدام وفية إنك أجمل فنانة تشكيلية في مصر ! »

وضحك ثلاثتهم ، ووضع الافطار فتناولوه في الشرفة المطلة على النيل ، إعتذرت الزوجة وهي تتركها لموعد أزف . . أصبحا وحدهما ولم تكن تعرف من أين تبدأ ولا كيف . وضعت الخادمة بينهما فنجانين من القهوة وانسحبت فسألها أحمد مختار :

« ما لك يا سامية ؟ »

نفس السؤال البسيط الذي قد يصدر من أي إنسان فتجد له الجواب على الفور . . . لكنه إذا ما صدر من أحمد مختار ، حمل معاني كثيرة . . هتفت :

« أستاذ أحمد . . . إنت ليه ما شتغلتش في الخارجية ؟! »

أطلق مختار ضحكة صافية ، ضحكته هذه هي سر جاذبيته حتى للذين يكرهونه ، دفعت الضحكة بالإبتسامة إلى شفتيها رغم ما كانت تعانيه . . . سألها :

« هو ده اللي إنت عاوزه تكلميني فيه ؟! » .

« لأ !! »

في تلك الشرفة التي تطل على النيل قصت عليه ما حدث باختصار . . .

قالت له إنها تريد أن تفضفض فلزم الصمت وراحت هي تحكي ... كان أحمد مختار يعرف عن حياتها ما يعرفه كل الزملاء ، راح يستمع إليها وفي عينيه نظرة حنان لا تخطئها العين ... اضطربت وهي تحكي ، تركت لضعفها العنان فدمعت عيناها ولم يعلق بشيء ... ولم تختف إبتسامته ... وعندما انتهت من حكايتها ، سألها :

« لكن إيه اللي يخليكي تُشكّي ؟! »

انفجرت دموعها رغماً عنها وكأنها كانت عند أبواب الجفون في انتظار الإذن ، قالت :

« أصل البلد صعبانة عليَّ !! »

ورأت الدمع في عيني مختار ، دمعاً تصاعد في عنف ثم تحجر كزجاج كسا المقلتين ... أشعل سيجارة كي يخفي ما اعتراه فسألته :

« تفتكر فيه حاجة يا أستاذ أحمد ؟! »

« كلنا تعبانين من النكسة يا سامية ، لكن الحساسية الزايدة مش مطلوبة ! »

تنفست الصعداء ، تشبثت بكلماته التي خالت أنها تبعد عنها شيئاً يؤرقها منذ عادت من الخارج ... لكنه أردف بعد لحظات :

« على العموم أنا لي واحد صاحبي بيفهم في الحاجات دي ! »

هكذا انتهى الأمر . لم يذكر لها من هو صديقه هذا ولا ما هو عمله ولا ماذا سيفعل معه أو يقول له ... ولقد أدركت أن الأمر انتهى عند هذا الحد فانصرفت ... وها هو ، بعد أقل من إثنتي عشرة ساعة ، يطلب منها أن تذهب إلى المخابرات !!

لاذت بالصمت ، وكانت تجلس إليه في غرفة مكتبه ، وراح قلبها يركض بعنف :

« عارفه مبنى المخابرات فين ؟! »

حاولت أن ترد لكنها لم تستطع !

« سامية ! » .

كانت المجلة هي ملاذها وبيتها وأملها وحبها كانوا جميعاً يلجأون إليها في المساء كالصباح ، كانت الساعة تقترب من التاسعة مساء فأحست أن دماءها تفيض من جسدها ، سرت فيها رعدة واجتاحتها برودة شديدة ، كابوس هذا الذي يجثم على صدرها ، رفعت إليه رأسها فضحك متسائلاً :

« ما لك ؟! » .

كانت نظرته الآن تشي بأنه يعرف كل ما يعتمل في نفسها ... عادت تغوص في تلك اللجة الرهيبة من الأفكار التي كانت تتقاذفها كأنها قشة تدفعها مياه شلال هادر .

« أنا باسألك إن كنتِ عارفه مبنى المخابرات فين ؟! » .

أخيراً وجدت صوتها :

« في القبة ... مش كده ؟! » .

« أول ما توصلي ، إسألي على السيد عادل مكي ! »

كانت هذه هي المرة الأولى التي تسمع فيها اسم « عادل مكي » .. جاءها الاسم من بعيد وكأنه يصدر من قاع بئر سحيقة ... رددت الاسم كي تتأكد من صحته .

« عادل مكي ؟! » .

« بكرة الساعة تسعة بالضبط حتلاقيه في انتظارك ! »

ونهضت !!

لم يكن هناك ما يمكن أن يقال ... أدركت أنها كانت على حق في شكوكها ، وإلاّ لما طلب منها مختار أن تذهب إلى المخابرات .

« ما لك يا سامية ! »

« فيه حاجة يا أستاذ أحمد ! »

هم بالحديث فأردفت :

« أرجوك ماتخبيش عليَّ ! »

ما كاد يفتح فمه بالرد حتى توسلت :

« إذا كان فيه حاجة قول لي !! » .

قال مختار وهو يميل نحوها :

« تفتكري إنه حتى لو كان فيه حاجة حايقول لي ؟! »

« ليه لأ ؟! »

وأطلق مختار ضحكة عالية وكأنها قالت نكتة . . . لم تضحك معه ولم تبتسم فعاد يقول :

« عادل دفعتي وصاحبي ، روحي له وإنتِ حاترتاحي خالص ! »

هذه المرة ، أحست أن كلماته مبتسرة ، وملامحه لا تحمل أي تعبير ، وعلى شفتيه ارتسمت ابتسامة بلا معنى . . . أيقنت ـ مرة أخرى ـ أن شكوكها قد أصابت ، وأن الطامة قد وقعت ، وأن الدنيا تدير لها وجهها البشع !!

غادرت مقعدها أمام مكتبه فأحست أن ساقيها لا تقويان على حملها . . . قبل أن تصل إلى الباب ضاعت منها أنفاسها ، وتخاذلت ركبتاها فترنحت وكادت تسقط فاندفع إليها مختار من خلف مكتبه هاتفاً :

« سامية ! »

عندما قبضت يده على ذراعها كي يقيلها من عثرتها أحست ـ لأول مرة ـ أنه يملك قوة غريبة لا ينبيء عنها جسده الدقيق هذا . . . جاءها صوته خافتاً ذا جرس أنكرته .

« المفروض إنك تتمالكي نفسك ! »

نظرت إليه بعينين تائهتين فأردف في حسم .

« والمفروض إن محدش يعرف أي حاجة عن الموضوع ده بتاتاً !! » .

وجاءه صوتها مغموساً في الدمع والضعف :

« ما هو محدش يعرف يا أستاذ أحمد ! »

في صرامة قاطعة قال :

« ولا حتى ماما ! » .

« حاضر !! » .

* * *

لم تكن سامية فهمي من هذا النوع من الناس الذين يصابون بالذعر لمجرد ذكر اسم « المخابرات » . . . كانت مقتنعة ـ رغم ما قيل في العام الماضي عن سقوط دولة المخابرات ـ بأن رجال الأمن لا يستطيعون التعرض إلا لهؤلاء الذين يرتكبون جرائم في حق المجتمع . . . وكانت دائماً تقول ـ إذا ما حذروها من سلاطة لسانها وعنف حديثها ـ إن « اللي على راسه بطحة يحسس عليها !! » . . . هي ترى أن الإستقامة ليست كلاماً ، ولكنها أولاً وأخيراً سلوك يلتزم به الإنسان حيال وطنه وأمته . . . عندما اختارها عضواً بالتنظيم الطليعي ، وعندما جلست مع سمير وفخري ومحمود وعلية في أول اجتماع تحضره ، سألت فخري جمعة ، وكان هو مسؤول المجموعة :

« طب إنتو عاملين التنظيم ده سري ليه ؟! » .

وعندما ووجهت بالحجج والآراء ، رفضتها جميعاً . . . كان رأيها أن السرية سوف تعطي الفرصة للنهازين ولعيبة السياسة كي يخربوا ويدمروا ، وأن الضمان الوحيد للتنظيم الطليعي هو العلنية . . . ولقد عارضوها جميعاً لكنها أصرت على تصعيد السؤال إلى المستويات العليا قائلة :

« المفروض أننا هنا علشان نناقش كل شيء بصراحة ، وده سؤال صريح وأنا عاوزه إجابة عليه !! » .

مرت الأيام واكتشفت أنهم اجتمعوا ذات مرة دون أن يبلغوها بالاجتماع فلم تهتم . . . لكنها فوجئت ذات يوم بأحمد مختار يقترح عليها أن تجري حديثاً مع وزير الإعلام فدهشت ، وسألته عن المناسبة وعن السبب . . . وكان البحث عن « النغمة الصحيحة » يشغل بال الكتاب والصحفيين والقيادة السياسية بعد النكسة ، رحبت بالأمر وسهرت ليلة حتى مطلع النهار لتحضير عدد من الأسئلة

كالقنابل . . . عندما عرضتها على مختار استمع إليها في انتباه شديد ، ثم تمتم : « **هايل !** » .

كانت هذه هي كلمته التي لا يزيد عليها حرفاً إذا ما أعجبه شيء . . . هي تعبير قد يحمل أي معنى في عرف الذين عملوا مع هذا الرجل المحيّر . . . كانت تعرف أن الوزير شاب . . . لكنها عندما التقت به وجدته أكثر شباباً مما ظنت . . . ما أن بدأ الحديث بينهما حتى ترك الرجل مكتبه وهو يمسك في يده ورقة . . . جلس أمامها بعد أن طلب من السكرتيرة ألا يزعجه أحد ، ثم راح يناقش معها كل ما قالته في اجتماع التنظيم . . .

أحست بالراحة والرهبة معاً ، لكنها اندفعت تطرح وجهة نظرها في تدفق ألزم الرجل الصمت حتى انتهت . . . ثم راح بعدها يناقش ويحلل ويعرض وجهة نظره ، وجدته دمث الخلق مهذب الكلمات هادىء الصوت خجولاً ، سألته ذات لحظة من لحظات رعونتها :

« **هو سيادتك مش كنت مخابرات قبل كده ؟!** » .

كان هذا منذ شهور طويلة ، ولم تكن تدري أنها ذات يوم ستذهب إلى هذا الجهاز الرهيب بقدميها طائعة مختارة . . . يومها ، فوجئت بضحكة الرجل تجلجل في الغرفة الأنيقة المطلة على النيل . . . ظل يضحك ويضحك حتى دمعت عيناه واحمر وجهه ، وكانت هي تضحك معه في استجابة ودهشة . . . ولم تنتهِ المناقشة عند بر ، وكانت الموضوعات قد تشعبت وتكاثرت بينهما حتى صاح فيها ذات لحظة :

« **لو ما كانش عندي اجتماع مجلس وزرا كنت قعدت معاكِ زي ما إنت عاوزه !** » .

أوْصَلَها حتى باب مكتبه في حفاوة أدهشت السكرتيرة ، صافحها في حرارة قائلاً :

« **يا ريت بلدنا فيها منك كتير يا آنسة سامية !** » .

غادرته على وعد بلقاء آخر ، لكن اللقاء لم يتم . . . وعندما طلبته في

مكتبه ذات يوم ألحت فيه الأسئلة على رأسها ، قالت لها السكرتيرة إنه في اجتماع وسوف يطلبها . . . لكنه حتى اليوم لم يطلبها ، فهل كان ما حدث في الشهور الأخيرة هو السبب ؟!

* * *

« **المخابرات يا ست !!** » .

كان التاكسي يقف أمام باب من حديد متجهم ، قليل من الزرع الأخضر ، مع الحر الخانق لذلك الصباح ، بدا الصمت ثقيلاً في تلك البقعة النائية من المدينة . . . انقبض قلبها وهي تعطي الرجل أجره وتغادر سيارته التي انطلقت بسرعة من يهرب من شبح . . . تقدمت من الباب فلمحت من خلفه وجهاً أسمر سرعان ما نفذ من الفتحة الضيقة استعداداً للقائها !

كان شاباً في العشرينيات من عمره ، تبدو ملامحه الوسيمة جافة لسبب غامض ، يرتدي ملابس رسمية ذات لون غريب . . . من منطقته يتدلى مسدس . . في أدب من تعود على مثل هذه الزيارات سأل :

« **أفندم !** » .

« **الأستاذ عادل مكي من فضلك !!** » .

« **نقول له مين يا فندم ؟!** » .

« **سامية فهمي** » .

« **فيه بطاقة ؟!** » .

أصبح الحوار ثقيلاً ، ردت عليه :

« **فيه ميعاد معاه !** » .

« **فيه بطاقة ؟!** » .

كرر السؤال وكأنه لم يسمع إجابتها . . . على مضض أخرجت بطاقتها الشخصية . . . نظر فيها ، ثم رفع عينيه نحوها ومن خلفه كان يقف حارس آخر ذو رأس كبير ووجه كأنه خلق لهاتين العينين الواسعتين المرعبتين !

« **إتفضلي سيادتك يا فندم هنا !** » .

قادها إلى غرفة خطت إليها عبر ممر داكن الضوء . . . غرفة انتظار هي ، لكنها مقبضة . . . تركها وحدها فارتجفت . . . أرادت أن تجلس على أحد المقاعد الوثيرة لكنها لم تستطع ، اكتشفت أنها متوترة ، وأنها تقبض على حقيبة يدها في عنف لا مبرر له . . . تذكرت أمها ونظراتها الحزينة ومشكلتها المزمنة وحنانها الدافق فدمعت عيناها . . . همست لنفسها في لوعة : « المخابرات يا نبيل . . . المخابرات ؟!! » . . . وكان الحوار في داخلها محتدماً عندما ظهر ذلك الشاب وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ترحيب بالغة الإشراق .

« إتفضلي سيادتك يا فندم ! » .

جمدت في مكانها لثوان وهي تنظر في إمعان إلى هذا الوجه الذي استقبلها بلا ابتسامة . . . وإلى نفس الوجه وقد أشرقت ملامحه بتلك الإبتسامة التي حولته من حارس إلى إنسان . . . خطت نحو باب الغرفة فأحست بالدوار . . . وكأن الشاب قد شعر بما انتابها ، فلقد قال مشجعاً :

« إتفضلي سيادتك ! » .

وسارت خلفه !

عبر حديقة ، ثم اخترقت ممراً يؤدي إلى مبنى جانبي . . . كان الحارس يسير أمامها فأعطاها الفرصة كي تتلفت هنا وهناك . . . هذا إذن هو جهاز المخابرات المصري . . . يبدو لها الأمر وكأنها في حلم ، ثمة سيارة هنا وسيارة هناك ولكن لا أحد على الإطلاق ، لا إنس ولا جان ، لا شيء سوى خطوات ذلك الحارس الذي كان يلتفت نحوها بين الحين والحين مردداً في حفاوة : « إتفضلي سيادتك !! » . . . حتى وجدت نفسها أمام باب غريب . . . هو باب من تلك الأبواب التي تعرفها جيداً ، لكن إحساسها جعلها توقن أنه ليس باباً . . . راحت تردع نفسها بعنف فها هو الخوف يغزوها مرة أخرى ، فَلِمَ تخاف ؟ إللي على رأسه بطحة يحسس عليها !

ما كادت تنفذ من الباب حتى طالعها مكتب صغير يجلس إليه رجل يرتدي ملابس عادية ، رجل هو أم عملاق أصلع ذو عينين واسعتين فكأنهما مصنوعتان

خصيصاً لتخويف الناس . . . نظر الشاب إلى الرجل الذي نهض مرحباً وهو يبادرها :

« آنسة سامية فهمي ؟

« أيوه ! » .

« إتفضلي يا فندم ! » .

انصرف الشاب ، وتبعت الرجل إلى سلم قادها إلى ممر كان يمتد حتى آخر الجدار . . . على الجانب الأيسر للممر أبواب مغلقة ، الجو مشحون وكأن هناك من امتص الحياة حتى من الهواء . . . عند باب من تلك الأبواب المغلقة توقف الرجل وفتح الباب .

« إتفضلي سيادتك يا آنسة سامية ! » .

دلفت إلى غرفة بسيطة الأثاث ، مكتب ومقعدان ، ثم مجموعة من المقاعد الجلدية التي تُكوّن صالوناً صغيراً ، في الواجهة نافذة زجاجية تطل على جدار شاهق ، تحت النافذة جهاز تكييف لا يعمل رغم حرارة الجو . . . على المكتب تليفون يبدو مهملاً ، ولا أوراق هناك ، لا دليل على أن أحداً يستعمل هذا المكتب !

كانت قد استغرقت فيما هي فيه عندما جاءها صوت الرجل فانتفضت ملتفتة إليه :

« سيادتك تشربي إيه ؟! » .

« قهوة مضبوط ! » .

« السيد عادل جاي حالاً ! » .

قال الرجل هذا ثم انسحب مغلقاً الباب فأحست بالرعب يشلها تماماً ، كان صوت الكالون حاداً واضحاً يؤكد أنه أغلق فانقبض قلبها ، هي لا تشرب القهوة بالنهار فلم طلبت قهوة ؟!! وجدت نفسها ترتجف دون إرادة منها ، أحست برغبة مروعة في الصراخ فاندفعت نحو الباب وفتحته فاستجاب لها وخرجت إلى الممر فتوقف الرجل الذي لم يكن قد بلغ آخره ، وكانت في عينيه نظرة دهشة شديدة .

« فيه حاجة يا فندم ! » .

وارتبكت . . .

لماذا فعلت ما فعلت ؟!

هل هي تريد أم أنها أرادت ـ فقط ـ أن تعرف إن كانت تستطيع النفاذ من الباب ؟!

« من فضلك قول لعادل بيه إني مستعجلة علشان . . . » .

وتوقفت الكلمات في حلقها عندما رأت شاباً وسيماً ينفذ إلى الممر مهرولاً .

« أنا آسف يا مدموازيل سامية ، أرجو أني ما أكونش اتأخرت عليك ! » .

في احترام أوسع الرجل الطريق لعادل مكي ، عرفته فوراً ولا تدري كيف . . . تصاعد إلى رأسها سؤال عربيد بلا معنى ، أين اختفى هذا الشاب الوسيم عن عيون مخرجي السينما ؟! . . . كان قد وصل إليها :

« عادل مكي ! » .

أرادت أن تختصر الطريق ، كعادتها اقتحمت المشكلة :

« أنا آسفة . . أصلي . . . » .

في ابتسامة رقيقة قال :

« ولا يهمك ، طلبتِ حاجة ؟! » .

« قهوة ! » .

التفت عادل نحو الرجل قائلاً :

« خليهم اثنين يا متولي ! » .

دفع باب الغرفة بيده :

« إتفضلي !! » .

ودلفت سامية فهمي إلى الغرفة ، وكانت رغبتها في البكاء ، تفوق أية رغبة أخرى !

* * *

الفصل الثاني

ولم يبق سوى الفتات !

عندما جلس ضابط الأمن القومي « عادل مكي » إلى سامية فهمي في ذلك الصباح الخانق من شهر يوليو عام ١٩٦٨ ، في تلك الغرفة المتجهمة التي رطب جوها التكييف ، كان يعرف عنها كل شيء . . . كان يعرف ـ بالضرورة ـ من هي ؟ وماذا تعمل ؟ وكيف تعيش ، ولم جاءت على وجه التحديد ؟!

بالأمس . . . وعندما اتصل به أحمد مختار تليفونياً ، ظن في البداية أن الاتصال كان للسؤال . . . ولقد دار الحديث بينهما مرحاً تناولا فيه أمور الدنيا وما فيها . . . حتى إذا ما سأله مختار في لحظة :

« طب إحنا مش حانشوف بعض يا عادل ؟! » .

دق في رأسه جرس الإنذار ، فقال على الفور :

« حدد الميعاد وأنا تحت أمرك ! » .

« نتغدى النهاردة في النادي سوا !! » .

أدرك عادل الآن ، وبوضوح ، أن الأمر يخص سامية فاجتاحته راحة غريبة . . . مضت لحظات صمت جاءه بعدها صوت مختار :

« قلت إيه ؟! » .

كان الحديث طبيعياً للغاية ، لكن الأسلوب الذي تحدث به مختار أوحى إلى عادل أن في الأمر شيئاً . . . ولم يكن أمامه سوى القبول فقبل ، وذهب للقاء صديقه ودفعته أحمد مختار !

منذ شهور ثلاثة ، وسامية فهمي ، وسط خضم ما كان يخوض فيه عادل في

تلك الأيام ، تشغل باله وتفكيره . . . ذلك أن هذه الصحفية الشابة كانت تمثل له أمرين :

الأول : هو تلك الفرحة الغامرة التي تنتاب ضابط المخابرات كلما تنبه مُواطن إلى مَواطن الخطر والزلل . . . وفي تلك الأيام السوداء . . . كان هناك عشرات من الشبان الذين راحوا يخطون إلى شِبَاك الإسرائيليين بلا روية ولا علم ولا تفكير ولا حتى فهم بطبيعة ما كان ينصب حولهم من شراك قاتلة . . . كانت سامية ـ لو صح حدسه ـ تمثل له فرحة غامرة بنجاة إنسان من حبائل الخيانة !!

أما الأمر الثاني : فإن سامية قد تستطيع أن تكون مَخْرَجاً من تلك القضية التي تؤرقه منذ ما يقرب من عام . . . والتي كانت آثارها تتفاقم يوماً بعد يوم حتى استفحل أمرها واستطاع الإسرائيليون ـ من خلال تلك الشبكة الجهنمية ـ أن يحرزوا فيها انتصارات مؤكدة !

الحلقة الخطرة ، والوعرة في نفس الوقت ، في هذه الشبكة . . . شاب مصري ، وسيم ذكي ، خفيف الظل ساحر الأسلوب . . . لم يكمل تعليمه الجامعي ، مواهبه متعددة ، أوقعه قدره ورعونته وطموحه في يد الصهاينة فاستجاب سعياً وراء نجاح مزيف . . . أعماه الغرض عن الهدف فانقاد . . . ثم تفتق ذهنه عن أساليب أبعدته ـ قانوناً ـ عن كل شبهة . . . فانطلق في قسوة غريبة ، يصطاد الشباب المصري ، شاباً وراء آخر ، وشابة وراء أخرى . . . حتى اشتهر أمره بين هؤلاء الساعين إلى حلم امتلاك سيارة بأي ثمن ، وجرى المال بين يديه بغير حساب . . . ويوم أن زار مصر ، دخلها تحت عيني عادل مكي فلم يستطع له شيئاً . . . جاء واثق الخطى ، وخرج دون أن يتعرض له مخلوق بكلمة ، ثم . . . كان لابد أيضاً من خروجه ، عرف عادل أثناء تلك الزيارة علاقة الحب بينه وبين سامية ، ثم عرف كل شيء عن تلك العلاقة ، لكن سامية كانت تبدو لاهية عن كل شيء فآثر الانتظار ، حتى إذا دخلت ذات يوم ، منذ شهرين ونصف الشهر ، وفي مدينة نابولي الإيطالية بالتحديد إلى دائرة الشكوك . . . كان حزنه قد أصبح عظيماً !!

أثناء زيارة نبيل سالم ـ هذا هو اسم الشاب ـ إلى مصر دخلت ساميه فهمي

إلى دائرة الضوء خاصة أن الأنباء والأحداث أكدت أن هذه الفتاة الملتهبة بالحماس ـ والتي استحوذت على إعجاب كل من التقى بها ـ تحب نبيل سالم حباً ملك عليها حياتها . . . كانت دهشته شديدة لارتباط تلك الصحفية والكاتبة الموهوبة ، بذلك الأفاق الذي ارتضى أن يبيع كل شيء ، حتى وطنه ، من أجل حفنة من المال . . . وعندما سافرت سامية إلى إيطاليا بعد ذلك ببضعة أسابيع كي تلتقي بنبيل ، كان لابد من وضع الأمر تحت منظار يوضحه . . ولقد حدث هناك ما عرف بعضه ولم يعرف بعضه الآخر ، ورآها بعيني رأسه تلتقي بمن يمثلون خطراً حقيقياً على الوطن ، بل بهؤلاء الذين ليس لهم من عمل سوى الإضرار بالوطن ، فانتظر حتى عادت إلى مصر . . . ومر شهر وشهران وبعض من شهر ثالث . . . ولم تتقدم سامية ، ولم تُبلّغ عن شيء ، بل راحت تنشط في جمع معلومات بدت غريبة ، ولم يكن هناك بد ، كان عادل مكي مضطراً إلى أن يضعها تحت مجهر دقيق لا يخفي من حياتها شيئاً . . . وكانت سامية ـ وهذا ما كان بالنسبة إليه مروعاً ـ تخطو إلى دائرة الشكوك يوماً بعد يوم حتى كاد يفقد صوابه !!

* * *

عندما يتعامل ضابط المخابرات مع شبكة أو عميل أو جاسوس ، فهو يتعامل بمقياس دقيق لا دخل للعواطف فيه . . . ولكن ماذا تفعل إزاء ناس اختصهم الله بهذه الجاذبية التي تجعل من أخطائهم شيئاً يحطم القلب ، ويورث الإنسان السقم ؟

لقد كانت سامية فهمي من هذا النوع من البشر . . . فظل عادل مكي محتفظاً بالأمل في أن تلجأ إليه ذات يوم . . . ولقد ظن في لحظة من لحظات الترقب المرير ، أن انتظاره قد طال . . . حتى إذا حدثه أحمد مختار ، وتناولا معاً طعام الغداء . . . ودردشا حول البلد وما يحدث فيها . وجاءت لحظات القهوة بما فيها من استرخاء . . . قال مختار :

« تعرف سامية فهمي » . . .

قال لي عادل مكي إنه في تلك اللحظات كاد يقفز من مكانه فرحاً . . . قال

إنه لا يخجل من الاعتراف بأن قلبه دق في عنف مزغرد . . . لكنه ، ولأنه مدرب على كتمان ما يعتريه من انفعالات ، رد على صديقه في بساطة :

« باقرأ لها في المجلة بتاعتك !! » .

ولم يكن عادل كاذباً . . . فلقد كانت سامية من تلك الأقلام التي تشد انتباهه رغم حداثة عملها في الصحافة وعلى كل ، فلقد قال مختار :

« سامية فطرت معايا النهارده الصبح !! » .

رفع عادل مكي حاجبيه مستفسراً ، فأردف مختار :

« فيه عندها مشكلة . . . . » .

كان حوار الرجلين في تلك الحديقة المترامية في ذلك النادي الذي اشتركا فيه معاً سنوات طويلة، يبدو طبيعياً لمن أراد الاستماع إليه، لكنه في واقع الأمر، كان يحمل شحنات متفجرة من الأحاسيس . . . ذلك أن كلاً منهما راح يقرأ ملامح صاحبه ، وكلاً منهما أخذ يمعن الفكر في كلمات صديقه . . . كان مختار يعلم بالضرورة أن صديقه ، حتى ولو كان يعلم شيئاً . . . لن يبوح له بشيء . . . كما كان مكي يعلم أن صديقه يستطيع أن يخمن وأن يفهم دون سؤال . . . ولذلك ، فلقد جرى الحديث بينهما سلساً ليّناً ، حتى إذا انتهى مختار مما أسرت له به سامية فهمي . . . قال مكي بعد لحظة صمت لم تطل وكأنه يفكر في الأمر :

« طيب ما تخليها تعدي عليّ بكرة ؟! » .

وكانت هذه الجملة إيذاناً بإغلاق الموضوع ، فزفر مختار زفرة كاللهب ، دفعت مكي إلى الإبتسام وهو يهتف :

« ما لك يا مخ » . .

ضحك مختار ضحكة خفيفة وهو يقول :

« فاكر يا وله سنة خمسة وخمسين ؟! » .

كانت تلك ذروة شبابهما . . . ذروة دفعتهما معاً إلى خوض الحرب ضد

الإسرائيليين بحماس وإيمان جعلا لتجربتهما طعماً مميزاً . . . راحا يضحكان وهما يتذكران تلك الليلة التي تجمدت فيها أطرافهما وهما يخوضان معركة بالسلاح الأبيض داخل حدود إسرائيل . . . تركا وحدتهما في تلك الليلة بلا أوامر وخاضا مع مجموعة من الفدائيين أرض فلسطين كي يصطادوا جنود العدو . . . وكاد مكي يُقتل بطعنة نافذة لولا مختار الذي أنقذه بمصادفة تقرب من المعجزات !!

في تلك الأيام لم يكن أحدهما يحمل للدنيا هماً ، وكان الأمل أمامهما يشرق كل صباح مؤكداً أنهما سيشاركان في بناء وطن تفخر به الأجيال . . . وها هما يجلسان وقد تقدمت بهما السنون ثلاث عشرة خطوة . . . فإذا الوطن مصاب بما أصيب به العام الماضي . هزيمة مدوية مروعة ، وكان عليهما ، كُلٌ في مجاله ، أن يبدأ من جديد .

« كان لازم اللي حصل ده يحصل ! » .

هكذا غمغم مختار فلم يرد عليه مكي . . . ألقى نحوه نظرة مشحونة بطاقة من حزن بلا حدود . . . سحق سيجارته وهو يقول :

« قول لها تعدي عليَّ بكرة الساعة تسعة يا مختار !! » .

ونهضا . . . .

وعاد مكي إلى مكتبه وقد استخفه الفرح ، وطلب ملفاً جاءه على الفور . . . أغلق غرفة مكتبه ، واستغرق في القراءة !

كان لابد له ـ عندما يرى سامية فهمي في الصباح ـ من أن يكون جاهزاً للقائها !!

* * *

وها هي سامية تجلس أمامه ، بينهما فنجانان من القهوة ، وكانت مضطربة أشد ما يكون الاضطراب . . . وكان يعلم أنها لابد من أن تكون مضطربة . . . فكيف السبيل إلى إزالة اضطرابها . . . كيف السبيل ؟!!

* * *

كان نبيل سالم واحداً من شباب مصر الذين خرجوا للسياحة فلم يعودوا

إليها لسنوات طويلة ... جاءت أخباره ، أول ما جاءت ذات يوم من أيام مايو عام ١٩٦٦ عندما التقى بـ « لويز جولدمان » في مدينة هامبورج الألمانية :

كانت لويز إسرائيلية من أبوين بولنديين نزحا إلى فلسطين قبل الحرب العالمية الثانية تحت ضغط الاضطهاد الذي كان يصيب اليهود في أوروبا ، ولدت لويز في فلسطين ، وأتقنت عدداً لا بأس به من اللغات ، والتحقت بخدمة الموساد في وقت يصعب تحديده على وجه الدقة ... ذلك أنها ظهرت أول ما ظهرت في باريس تحت اسم « مارسيل ماتيو » ثم انتقل نشاطها إلى روما حيث انتحلت اسم « صوفي جارديني » ... ثم اختفت لأعوام قليلة ، حتى اكتشف الرجال أنها تعيش في ميناء هامبورج منذ شهور تحت اسم أمريكي هو « شيرلي هايمان » .... وإذا كان نشاط لويز جولدمان قد تميز في فرنسا بالتركيز على الطلبة العرب خاصة الجزائريين منهم ، فإن نشاطها في روما اختلف تماماً ، فلقد اشتركت في عمليات خطرة ومؤثرة ... لكنها عندما ظهرت في هامبورج في هذه المرة الأخيرة ، كانت تتقن العربية باللهجة اللبنانية ... ولقد قيل في أحد التحليلات العلمية التي جرت لشخصية لويز ... إنها لابد كانت تتقن العربية منذ أن ظهرت في فرنسا ، وإنها استطاعت أن تخفي هذا ببراعة لابد من الاعتراف بها ... بل إن البعض كان يرى ـ ودون دليل قاطع ـ أنها عاشت ، قبل أن تظهر في فرنسا ، لسنوات في لبنان تحت اسم وهمي يغلب على الظن أنه اسم فرنسي ، وأنها كانت تحمل جواز سفر فرنسياً ... وان سبب عدم كشفها في بيروت أو الانتباه إليها ، انها في تلك السنوات الغامضة ، لم تكن مكلفة بشيء ذي طبيعة خاصة ... وان كل ما كان عليها أن تتقنه ، هو أن تتعلم العربية وأن تتحدث بها بطلاقة لا تبعث على أدنى قدر من الشك ... ثم ها هي تظهر في هامبورج كموظفة في إحدى الوكالات الأمريكية التي تعمل في السياحة ... كان معروفاً أن هذه الوكالة بالذات تتبع شركة هائلة مركزها نيويورك ، يملكها عدد لا بأس به من اليهود الأمريكيين ... ولم يكن صعباً أن تُعَيّن فتاة مثل لويز جولدمان تحت اسم مزيف وجواز سفر أمريكي في شركة أمريكية ...

وفي الحقيقة فإن الرجال لم يكتشفوا أمر هذه الشركة في وقت مبكر ، لكنهم اكتشفوها عندما نما إلى علمهم أن بعضاً من الشباب العربي ، كان يسافر من بلاده إلى ألمانيا خصيصاً كي يشترك في رحلات هذه الوكالة الأمريكية التي كانت تحملهم إلى أركان الأرض الأربعة ، في رحلات ينفقون فيها أموالاً طائلة طلباً للمتعة ... وعلى كل الأحوال ، فإن لقاء « نبيل سالم » بـ « لويز جولدمان » أو « شيرلي هايمان » الموظفة بوكالة السياحة الأمريكية ... لم يكن إلا في أواخر عام ١٩٦٦ ... ولقد كان لهذا اللقاء قصة !

* * *

قال عادل مكي وهو يوجه إلى سامية فهمي ابتسامة راضية :

« مختار قال لي إن عندك مشكلة ! » .

ردت سامية :

« هي مش مشكلة بالمعنى الدقيق للكلمة ... هي شكوك ! » .

« في إيه ؟! » .

كان سؤاله الأخير مثل طلقة حسمت الأمر ... وكان لابد لسامية من أن تدخل في الموضوع ! » .

* * *

كان نبيل سالم ابناً لموظف من موظفي وزارة الصناعة ... كان والده موظفاً كبيراً لا يصل إلى درجة وكيل وزارة وإن كان قريباً منها أو لصيقاً بها ... عُرف عن علاقة الأب بابنه ذلك التوتر الدائم الناجم عن اختلاف وجهتي نظر كل منهما لأسلوب التعامل بينهما ... ولقد قيل في البداية إن الأب كان على خلاف حاد مع زوجته أدى إلى هذا الخلاف المزمن مع ولده نتيجة لتعاطف الأم مع ابنها ... ولكن ، اتضح بعد فترة وجيزة أن هذا غير صحيح ...

فبالرغم من أن أم نبيل كانت تتعاطف مع ولدها ، كانت تحب زوجها وتحترمه وترى في تصرفات ولدها طيش شباب لا أكثر ولا أقل ، كما أنها كانت ترى في تصرفات زوجها ومواقفه حيال ولده ... « حنبلة » زائدة ، وتقليدية من

أب كان عليه أن يساير العصر . . . ولم يُعْرَفْ حتى وقت متأخر ، سر خروج نبيل من مصر ، أو ربما لم يفهم أحد وجهة نظره ولم يقدرها حق قدرها . . .

ففي الإجازة الصيفية لعام ١٩٦٥ ، استطاع الطالب نبيل سالم أن يحصل على تأشيرة خروج من مصر ، وتأشيرة دخول إلى ألمانيا الغربية للسياحة . . . كان وقتها ، رغم أنه كان في السادسة والعشرين من عمره ، لا يزال في السنة النهائية بكلية التجارة بجامعة القاهرة ، ومنذ التحق نبيل بالكلية ، عرف عنه أنه لا يطيق حتى اسم التجارة . . . كانت رغبته في الالتحاق بكلية الاقتصاد السياسي حارقة . . . إلا أنه لم يستطع ، رغم كل الوساطة التي لجأ إليها أبوه ، أن يحقق تلك الرغبة !

عُرِفَ عن نبيل سالم وسط عائلته وأصدقائه وجيرانه ، أنه « شايف نفسه حبتين » فهو ـ فوق أنه جميل الوجه مليح التقاطيع ـ وسيم وسامة لا يختلف عليها إثنان ، خفيف الظل ، قادر على اكتساب صداقة الآخرين بسهولة ويسر . . . حامت حوله ـ من السنة الأولى في الكلية ـ أقاويل وشائعات عن علاقات حب بينه وبين بعض زميلاته لم تثبت صحتها . . . شيء واحد كان يعيب نبيل ، إنه لم يكن يطيق العلم . . . كان دخوله إلى المدرج واستماعه إلى محاضرة أو انكبابه على كتاب ، أمراً دونه خرط القتاد ، كما يقولون . . . بعد أربع سنوات التحقت سامية فهمي بقسم الصحافة بكلية الآداب ، والتقت بنبيل وسط شلة من الزملاء والزميلات في بوفيه الجامعة . . . وكل ما عرفه عادل مكي عن علاقتهما ، أنهما لم يفترقا منذ أن التقيا لأول مرة ، وأن علاقة حب نشأت بينهما لم تحاول سامية أن تخفيها ، فلقد كانت من هذا النوع الذي إذا ما اقتنع بشيء تحمل مسؤوليته في شجاعة وصراحة ووضوح . . .

في ذلك العام ، عام ١٩٦٤ ، نجح نبيل سالم لأول مرة في حياته ـ ومن أول سنة له ـ في السنة الثالثة ، وانتقل إلى السنة النهائية . . . لكنه فشل في الحصول على البكالوريوس ، كانت المشاكل قد تجددت بينه وبين أبيه عندما أراد أن يتقدم لخطبة سامية من والدتها ناظرة المدرسة . . . رفض الوالد ، وأصر على الرفض فاحتدم الخلاف بينهما . . . . وقيل إن سامية أيضاً ـ في ذلك

العام ـ اختلفت مع نبيل كثيراً ، لكن أحداً لا يعرف طبيعة هذا الخلاف أو سببه . . . فشل نبيل في الحصول على البكالوريوس وانتقلت سامية إلى السنة الثالثة وكانت قد التحقت بمجلة الفجر كصحفية تحت التمرين . . . ذهبت إلى المجلة في دورة تدريبية تحتمها دراستها في الكلية ، لكن نشاطها وذكاءها وحماسها جعلهم يتشبثون بها في المجلة ويرحبون بانضمامها إليهم . فشقت طريقها بسهولة واستطاعت خلال شهور قليلة أن تلفت إليها أنظار القراء وفي صيف عام ١٩٦٥ قرر نبيل أن يقوم برحلة سياحية إلى ألمانيا عن طريق البحر . أقلته السفينة إلى ميناء فينسيا الإيطالي . وهناك اختفى دون أن يعرف أحد عنه شيئاً . . . إلى أن ظهر بعد بضعة شهور في ميناء هامبورج الألماني ولم يكن له عمل محدد . . . عندما انقضت الشهور دون عودته انتاب القلق أبويه ، حتى لقد ذهب والد نبيل بنفسه إلى كلية الآداب كي يلتقي بسامية . . . ولقد كان لقاؤه بها غريباً ، جلس إليها لساعتين أو يزيد قليلاً ، ويقال إن الرجل عاد بعد لقائه بسامية وقد انتابته دهشة وعاد إليه إشراقه ، وإنه قال لزوجته ، إنه لو كان يعلم أن إبنه يريد الزواج من فتاة مثل سامية لما مانع ولما اعترض ، بل لرحب بالأمر . . . على كلٍ فلم تمض أسابيع قليلة حتى وصله خطاب من ولده . وكان الخطاب صادراً من مدينة هامبورج . . . في الخطاب طمأن الولد والده على نفسه وحياته . قال نبيل لأبيه في الخطاب إنه لن يعود إلى مصر إلا بعد أن يُكَوِّن نفسه ويعرف طريقه ، وإنه سئم ـ وقد بلغ السابعة والعشرين من عمره ـ أن يعيش عالة على أبيه . . . قال ـ فيما قال ـ إنهم في أوروبا لا يهتمون بالشهادات قدر اهتمامهم بالكفاءات ، ورغم ذلك فلقد التحق بأحد المعاهد الاقتصادية بعد أن أصبح يتقن الألمانية !

ولقد ركن الرجل إلى الأمل !

كما غذى الأمل في نفسه ـ هذا قوله بالحرف الواحد ـ لقاؤه مع سامية فهمي التي بدت له مؤمنة أشد ما يكون الإيمان بمستقبل ولده !

لكن الحقيقة كانت غير هذا تماماً !

كان عادل مكي ورجاله قد توصلوا إليها وعرفوا القصة كاملة !

* * *

عندما بدأت سامية فهمي تطرح شكوكها على عادل مكي ، بدت مرتبكة ، وكان هذا أمراً طبيعياً . . . راحت تقص سفرها إلى إيطاليا لشراء سيارة . وكيف التقت بسمسار يعمل في تجارة السيارات وتصديرها . ثم كيف تعرفت على مدير إحدى وكالات الأنباء . . . ثم عادت ونقضت كلامها هذا ، وعندما همت باستئناف الحديث ، ابتسم عادل مكي وهو يسألها :

« تحبي نأجل الكلام لبكره ؟! » .

صاحت في حدة لم تقصدها :

« لا . . . أنا ما صدقت إني قابلتك ! » .

ثم توسلت :

« تفتكر فيه حاجة يا عادل بيه ؟! » .

ولقد بدا عادل مكي بريئاً كل البراءة وهو يسألها :

« حاجة زي إيه ؟! » .

وإزاء ارتباك سامية الذي ازداد . . . كان لابد من تناول فنجان آخر من القهوة !!

* * *

عندما وصل نبيل سالم إلى هامبورج لأول مرة، كان في حالة يرثى لها حقاً . . . استطاع في إيطاليا أن يجد مجموعة من الشباب هم خليط من جنسيات مختلفة ، كانوا مثله يبحثون عن شيء لا يدرون ما هو . . . كانوا يعملون أياماً ويتعطلون أياماً ، لكنهم استطاعوا الصعود شمالاً إلى ألمانيا عبر سويسرا ، وحطت بهم الرحال في هامبورج حيث كانت البيئة في تلك المدينة تناسب الكثير من هواهم !

في هامبورج أصيب نبيل بنزلة شعبية كادت تؤدي به . . . لزم الفراش أياماً فهجره أصدقاؤه ثم اختفوا من المدينة وقيل إنهم استقلوا إحدى السفن المبحرة

إلى بريطانيا . . . وأصبح نبيل قاب قوسين أو أدنى من الموت لولا صاحبة البيت الذي كان يسكن إحدى غرفه ، وهي سيدة في خريف العمر تؤجر غرف بيتها للشباب أو من يدفع أكثر . . . رق قلب « فراو انجي » للشاب المصري المفلس المريض . . . كانت وحيدة وكان وحيداً فلازمته حتى شفي من مرضه . . . حفظ لها الجميل وكانت الصفقة بالنسبة للاثنين مجزية ، قنع بالغرفة التي أثثتها له بعد أن رفض العيش في مسكنها الصغير بحجة أنه يريد أن يشعر باستقلاله . . . واستطاعت فراو أنجي أن تجد له عملاً في الميناء وكانت هذه هي بداية النهاية بالنسبة لعلاقته بتلك السيدة المسكينة ، فلقد التقى ذات يوم في مشرب قريب من الميناء بشاب يدعى « فريدريك » . . . كان فريدريك فرداً في عصابة لتهريب المخدرات عن طريق الميناء . . . ولقد أصبح هذا الشاب الألماني الجسور صديقاً لنبيل الذي كان أجره من عمله يكفيه بالكاد كي يواصل الحياة . . . في البداية لم يعرف نبيل كنه عمل فريدريك الحقيقي ، لكنه أعجب به وبجسارته ، كما سال لعابه للمال الذي كان الشاب ينفق منه في بذخ وبلا مبالاة . . . كانت الشهور تنقضي وكلما انقضى شهر أحس نبيل أن عودته إلى مصر خالي الوفاض دونها الموت نفسه ، كان أحياناً يكتب لسامية ممنياً إياها بالآمال والنجاح ، راح يلفق لها الحكايات عن المعهد الجديد الذي التحق به والعمل المحترم الذي حصل عليه . . . وكانت خطاباتها إليه مليئة بالحرارة والحب والإيمان والأمل والثقة بلا حدود في أنه سوف يستطيع أن يحقق أحلامه . . . أصبحت خطاباتها بعد فترة أزمة كان يتجنبها فلقد كانت بدورها تحدثه عن نجاحها في المجلة ، وعن إعجاب رئيس التحرير بها ، وفي بعض الأحيان كانت ترسل إليه موضوعاتها المنشورة والممهورة باسمها . . . ولقد كان نبيل في البداية يقرأ من الخطاب سطوراً ثم يلقيه بعيداً كمن يهرب منه ، كانت كلماتها كأسياخ محماة تحرق جلده ، وكان نجاحها يجسد له فشله . . . ثم أصبح يلقي بخطاباتها جانباً دون قراءة ، ثم أصبح يمزق تلك الخطابات دون أن يفض الظرف . . . ثم . . . وعندما تشاجر ذات ليلة أفرط فيها في الشراب مع فريدريك ، حيث صحب معه إلى الغرفة إحدى فتيات الحانات ، فتشاجر تلك الليلة مع فراو أنجي ، لم يكن أمامه وقد جن جنون المرأة التي كانت قد سقطت

صريعة شبابه ، إلا أن يترك الغرفة وينتقل إلى مكان آخر . . . ولم تتركه فراو أنجي ، بل راحت تحرض عليه صديقها حتى فصله من عمله . . . وعاد نبيل إلى الشارع من جديد !

بحث عن فريدريك فلم يجد له أثراً ، كمن تبخر في الهواء اختفى صديقه ، بحث عنه في كل مكان فلم يجده ، بحث عن عمل ، أي عمل دون جدوى . . . حاول أن يطرق باب فراو أنجي فكان نصيبه الطرد والتهديد بتبليغ الشرطة . . . أصابه الرعب فهو يعلم ما الذي تعنيه الشرطة في بلد كألمانيا ، خاصة مع من كان عربياً أفاقاً مثله بلا مأوى ولا عمل . . .

وساءت أحوال نبيل سالم يوماً بعد يوم حتى لقد قبل أن يعمل « مرمطوناً » في مطعم صغير بالميناء لقاء بضعة ماركات لا تسمن ولا تغني . . . كان كل ما يعنيه في عمله هذا أن يجد ما يسد به رمقه فيما تبقى من فتات في أطباق الزبائن ، وأن يجد ما يدفعه ثمناً لغرفة قذرة شاركه فيها أربعة أشخاص لم يكن أحدهم يعرف عن الآخر شيئاً . . . حتى كان يوم !

يوم التقى فيه نبيل بأبو سليم . . .

ذلك الرجل السوري الضخم الجثة المنتفخ حافظة النقود النهم إلى الطعام والشراب . . . المرح الذي لا يكف عن الدعابة أو الضحك أو مغازلة الفتيات ، العربي الفخور بعروبته . . . سمسار هو ، يعرف كيف يكسب المال بالألوف وكيف ينفقه في بذخ . . . ليلة أن التقى به كان نبيل يعاني من انتفاخ في قدمه اليسرى سبب له آلاماً رهيبة ، كان عليه أن يعود إلى البيت سيراً على القدمين ، لكنه لم يستطع مواصلة المشوار فجلس في أحد البارات . . . وكان غريباً أن تحدث صدفة من نوع نادر ، فلقد هبطت على رأسه صيحة أبو سليم :

« الأخ عربي . . . موهيك ؟! » .

رفع نبيل عينيه إلى رجل هائل الحجم أنيق الملبس متورد الوجه منتفخ الكرش . . . قال في اقتضاب من لا يرجو خيراً من هذه الدنيا :

« هيك » !

« مصري ؟! » .

« مصري !! » .

وجلس أبو سليم إلى جواره ، وطلب مشروبين له ولنبيل ، وراح يحكي عن العرب والعروبة وعبد الناصر والإنفصال والقومية . . . راح يثرثر وكانت عيناه تأكلان الفتيات أكلاً وتلا المشروب بآخر وثالث ورابع ، وعندما تمنع نبيل في لحظة بدا الغضب على وجه الرجل وهو يصيح بلهجته السورية :

« شو الغمى ، بترفض دعوتي ؟ . . . هادي إهانة ! » .

حاول نبيل أن يوضح فأقسم الرجل أن يدعوه طوال تلك الليلة . . .

نادى على الجرسون وأخرج حافظة منتفخة بالماركات دفع منها ثمن ما شربا ثم صحب نبيل إلى مطعم قدم لهما ألواناً من الطعام طال حرمان نبيل منها . . . في تلك الليلة أكل نبيل وشرب كما لم يأكل ويشرب في حياته . . . ولقد أحب أبو سليم هذا ، ثم أحبه أكثر عندما همس له بأنه يبحث عن عمل ، وأن الحال ليست على ما يرام . . . ثم كاد يقبّل يده والرجل يعده بأن يجد له عملاً عنده ، فهو في حاجة إلى مساعد أمين بعد أن سرقه الألمان ، وليس هناك أحسن من أخ عربي يأخذ بيد أخيه العربي !

كأن طاقة فتحت لنبيل سالم في السماء . . . نام ليلته ممتلىء البطن بالطعام ممتلىء الرأس بالأحلام . . . وكان على موعد في اليوم التالي مع أبو سليم . . . لكنه لم يكن يعلم إنه كان على موعد مع واحد من أخطر رجال المخابرات الإسرائيلية ! . . . .

الفصل الثالث

الطريق إلى الجحيم ؟

أدرك عادل مكي منذ البداية أن سامية فهمي تعاني من ارتباك بالغ . . . وأن ارتباكها هذا يقودها إلى القفز فوق بعض الحقائق التي قد تراها بلا أهمية ، أو فوق بعض الوقائع التي تريد أن تخفيها . . . وإذا كان إخفاء بعض الوقائع في مثل هذه الحالات دائماً ما يحمل معنى الخوف أو الخجل أو عدم الرغبة في الاعتراف بما ارتكبه الإنسان . . . . فإن خوف سامية فهمي ـ هكذا كان عادل موقناً بعد دراسة مستفيضة ودقيقة لشخصيتها وتصرفاتها ـ كان يحمل معنًى مختلفاً ، فهي ـ في قرارة نفسها ـ لا تريد حماية نبيل سالم ، ولكنها تريد حماية نفسها من صدمة قد تؤدي بها ، لا تريد أن تواجه اختبارها الذي تحدَّث به العالم كله ، فإذا به يخذلها حتى الموت !!

كانت سامية في جلستها تلك أمامه ، تتعذب ! عندما بدأت الحديث راحت كلماتها تتناثر هنا وهناك في محاولة لتهوين الأمر . . . قالت إنها عندما وصلت إلى نابولي التقت بسمسار أرادت أن تبتاع منه سيارة ، وإن هذا السمسار رحب بها ترحيباً بالغاً وهون عليها الأمر حتى خالت أنها ستعود بالسيارة إلى مصر في اليوم التالي . . . . ثم التقت بمدير وكالة « ال. أم دي » للأنباء، وهي وكالة حديثة وجديدة ، وأرادها أن تتعاون معه وأن تكون مندوبة الوكالة في القاهرة . . . . وأن الأيام كانت تمضي دون أن تشتري السيارة ، ودون أن ترى تلك الوكالة . . . . وأن . . . . وأن . . . . وأن . . . . و . . . . . و . . . . . و ولم تذكر سامية شيئاً عن نبيل سالم ، لا عن علاقتها به ، ولا عن لقائها معه هناك . . . . ولابد من أنها كانت موقنة من أنها تهرب من الحقيقة ، لأنها راحت

تحكي ما حدث بكلمات مبتورة وجمل ناقصة . . . حتى جاءت لحظة لم يكن هناك مفر من مجيئها . . . فتوقفت عن الحديث لاهثة !!

تطلعت إليه بعينين متوسلتين وكأنها تطلب منه الرحمة أو النجدة ، فتلقاها بابتسامة واسعة مرحبة ، قدم لها سيجارة فارتجفت أصابعها وهي تتناولها منه ، كان يعلم أنها لا تدخن لكنه أراد لها أن تتلهى عن انفعالاتها بالتدخين فقد يعينها هذا على استعادة هدوئها !

« تسمحي لي أناديكي باسم سامية من غير ألقاب ؟! » .

« ياريت ! » .

قالتها ملتاعة الصوت فتمزق قلبه لعذابها .

« إنت لسه ماجعتيش ؟! » .

قال هذا وهو ينظر في ساعة يده فنظرت في ساعة يدها وكان الوقت يقترب من الثالثة بعد الظهر . . . أدهشها سؤاله فضحكت ضحكة ممزقة القوام :

« هو انتو بتغدوا الناس هنا ؟! » .

ولم يتمالك عادل مكي نفسه ، لم يتمالك نفسه من إطلاق ضحكة هائلة صاخبة . . . كان السؤال يحمل من المعاني ما ترسب في نفوس الناس عن المخابرات ورجال المخابرات ، كان قد تعود على ذلك وأن كان مثل هذا السؤال ـ في حقيقة الأمر ـ يجرحه . . . . ألقى بالسؤال خلف ظهره وهو يميل نحوها وقد ملأت الإبتسامة وجهه :

« الكانتين عندنا فيه أكل كويس ! » .

ولقد أدركت سامية الخطأ الذي وقعت فيه ، أرادت ان تعتذر لكنها لم تستطع تبعثرت الكلمات من فمها حائرة ، رفعت إليه عينين يمتزج فيهما الحزن بالعذاب :

« أنا تعبتك ! » .

« ده مش حقيقي ! » .

« أخذت من وقتك كثير ! » .
« ده شغلي ! » .
« أصل المسألة كلها كده ممكن تكون مجرد مخاوف أو شكوك ! » .
« يبقى كسبنا ! » .
رفعت حاجبيها دهشة وكأنها لم تفهم مراده فأردف :
« يبقى كسبنا إننا عرفنا أنها مجرد مخاوف أو شكوك ! » .
تغضنت ملامحها ، أحست أنها تلعب مباراة محكوماً عليها فيها بالهزيمة حتى ولو انتصرت . . .
« نتغدى ؟! » .
إنفجرت سامية فهمي وقد اجتاحها الضعف فأغرق الدمع عينيها :
« أنا تعبانة قوي يا عادل بيه ! » .
فنهض إلى التليفون ، وأدار رقمين وطلب غداء لإثنين !

* * *

قالت لي سامية فهمي وهي تحكي لي قصة ذلك اللقاء الأول ، إن أكثر ما كان يعذبها أنها أحست ـ وبشكل غامض ـ منذ الوهلة الأولى أن عادل مكي يعرف كل شيء . . لم يبدِ عليه ما يوحي بذلك لكن أسلوب تعامله معها كان فيه من الحنان ما لم تملك أمامه سوى الضعف المبين ، وكان فيه من الإستقامة ما كان يبعث بالرعب إلى قلبها . . . قالت إن عادل أقبل على الطعام بسعادة وشهية لم يحاول أن يخفيها . . . وإنه قال لها إنه كف عن تناول طعامَ الإفطار منذ عامين لسبب لا يدريه . . . ولذلك فما أن يحين وقت الغداء حتى يشعر بأن الجوع يقتله . . . قالت ـ وكانت لا تزال تبدو دهشة ـ إنه تحدث أثناء الطعام وبعده في كل شيء بطلاقة بدت غريبة . . . . تحدث معها عن الصحافة والصحفيين ، وإنه ذكّرها بتحقيق كتبته منذ ما يزيد على العام عن العاملات في أحد مصانع النسيج . . . . ثم ذكّرها بتحقيق آخر كتبته عن نساء « قلعة الكبش » ـ وهو حي شعبي قريب من حي القلعة القاهري ـ ومدرسة محو الأمية التي

شاركت في إنشائها في نفس الحي . . . . ثم عن المشغل الذي شرعت ـ مع أخريات كن عضوات في التنظيم الطليعي ـ في تكوينه ، ثم حلت النكسة فتوقف المشروع !
« ليه ؟! » .
قالها في حدة لفتت نظرها فردت بسرعة :
« مش إحنا اللي وقفناه ! » .
« أمال مين إللي وقفه ؟! » .
« النكسة !! » .
قال وقد بدا عليه الانفعال :
« أنا كنت متصور إن النكسة حاتخليكم تستميتوا فيه أكتر !!! » .
قالت لي سامية فهمي إنهما انهمكا في مناقشة حامية حول الموضوع حتى تصورت أن ما جاءت من أجله ليس على هذا المستوى من الأهمية . . . حتى إذا نظر في ساعة يده ذات لحظة ، وكانت تشير إلى الرابعة والنصف قال :
« أظن كفاية كده النهارده ! » .
ولقد هوت الجملة فوق رأسها كالمطرقة ، كانت قد أخذت من وقته سبع ساعات ونصف الساعة ولم تكن قد قالت شيئاً ذا بال ، إنتابتها الحيرة فسألته :
« أنا مش حاشوفك تاني ؟! » .
« بالتأكيد ؟! » .
« إمتى ؟! » .
« بكرة في نفس الميعاد ! » .
وهكذا غادرت سامية فهمي جهاز المخابرات العامة المصرية في زيارتها الأولى له دون أن تحقق شيئاً، دون أن تعرف إن كانت شكوكها حقيقية أم إنها مجرد أوهام . . . غادرت سامية هذا الجهاز الذي دخلته لأول مرة وهي تتمزق حيرة ، أدركت أن عادل مكي عندما ناقش ما ناقشه معها من موضوعات كان يخفف الضغط عنها ، وهو . . . هو لم يطلب منها شيئاً على الإطلاق ، سوى :

« آنسة سامية ! » .

« إنت مش قلت من غير ألقاب ؟! » .

كان كل منهما يقف قبالة الآخر استعداداً للإنصراف :

« أنا مش محتاج أقول لك بلاش حد يعرف بزيارتك دي ! » .

« حاضر ! » .

قالتها في طاعة عمياء لم تتعودها أبداً !

« ولا حتى ماما !! » .

ابتسمت ابتسامة يقطر منها الحزن .

« إيه اللي خلاكي تبتسمي كده ؟! » .

« لأن الأستاذ أحمد مختار طلب مني نفس الطلب ! » .

وابتسم عادل مكي فعادت إليها طبيعتها المقتحمة ، سألته :

« هو الأستاذ مختار كان بيشتغل معاكم صحيح ؟! » .

وللمرة الثانية ، يطلق عادل مكي تلك الضحكة الصاخبة النابعة من أعماق القلب . . . لكنه لم يعطها جواباً !!!

* * *

منذ أن اكتشف عادل مكي علاقة نبيل سالم بلويز جولدمان ، أو شيرلي هايمان ، وهو يحفر وراء كافة التفاصيل التي يمكن التوصل إليها عن تلك العلاقة التي استشعر خطرها منذ الوهلة الأولى . . . لم تكن خطورة لويز تخفى عليه بطبيعة الحال ، ذلك أن تلك الفتاة لعبت أدواراً شديدة التأثير والخطورة منذ أن كانت في باريس واستطاعت هناك أن تنفذ إلى مجتمع الشباب الجزائري إلى حد دفع المخابرات المصرية إلى الدخول معها ـ أو مع الموساد بتعبير أدق ـ في جولة دفعت تلك الفتاة الزرقاء العينين في النهاية ، وبعد صراع شاق استمر قرابة عامين ، إلى مغادرة باريس والإختفاء لفترة عادت بعدها للظهور في روما . . . لتبدأ على الفور جولة أخرى أكثر عنفاً ، جولة منيت فيها المخابرات الإسرائيلية بهزيمة دفعتها إلى إعادة لويز إلى تل أبيب .

ولقد أدرك الرجال عندما طال اختفاء لويز في تلك المرة الأخيرة أن شيئاً ما وذا طبيعة خاصة يُدَبّر في الخفاء ، وإنها ستعود إلى الظهور إن آجلاً أو عاجلاً ، ولكن ـ بالطبع ـ في ثوب جديد !

ولابد لنا من الإعتراف بأن لويز كانت تملك براعة لاشك فيها ، إذ أنها عندما عادت إلى النشاط في هامبورج ظلت شهوراً طويلة تمارس عملها في تلك الشركة الأمريكية للسياحة دون أن يشعر أحد بوجودها . . . ولم يكن هذا راجعاً إلى أسلوب التخفي المتقن ـ والشديد البساطة ـ الذي لجأت إليه من حيث تغيير لون الشعر وتسريحته ، ووضع نظارة طبية غيرت ملامحها فقط ، بل حتى في أسلوب حياتها اليومية . . .

وعندما التحقت شيرلي هايمان بفرع الشركة الأمريكية في هامبورج ، كانت قادمة من نيويورك حيث كان لها هناك ملف كامل في فرع الشركة الرئيسي ، ملف يحكي قصة إلتحاقها بالشركة والدرجات العلمية التي حصلت عليها والوظائف التي شغلتها ، والجامعة التي تخرجت فيها . . . إلى آخر كل هذه المعلومات التي من السهل تزييفها . . . ولم يكن هذا أيضاً هو الذي أبعد عنها الأنظار فقط ، فلقد كان الرجال يعرفون أن مثل هذه المعلومات من الممكن تلفيقها بسهولة بالغة . . . لكن الذي لم يلفت نظرهم إليها . . . هو أن تصرفات مس هايمان بدت شديدة الإستقامة . . . لم يكن لها ـ لشهور طويلة ـ علاقات أو صداقات مشبوهة . . . حتى شوهدت ذات يوم في صحبة فريدريك بيكر الذي كان معروفاً للرجال ، كما كان معروفاً للبوليس الألماني !!! كموزع للمخدرات في الميناء يعمل لحساب عصابة أحكمت سيطرتها على هذه التجارة في تلك المدينة الألمانية الصاخبة والمليئة بالمخاطر !

كانت هامبورج في تلك الأيام تعج بالشباب العربي والمصري خاصة . . . شباب حط رحاله في ذلك الميناء الألماني بحثاً عن المال أو المستقبل أو الذات أو . . . أو العلم !

... ...

... ...

هكذا كانت هامبورج في تلك السنوات المفعمة بالخطر . . . .

وفي الحقيقة ـ هكذا اعترف لي عادل مكي فيما بعد ـ إن أمر علاقة شيرلي هايمان ـ أو لويز جولدمان ـ بذلك الفتى الألماني فريدريك بيكر ، لم يلفت النظر . . . فلقد كان هذا الشاب الخطر شديد المرح ، وسيم الوجه أنيق الملبس حلو المعشر جذاباً له علاقات كثيرة ومتشعبة يحتمها عليه عمله . . . كانت له علاقات بالعديد من عمال الميناء والبحارة . . . كما كانت له علاقات منتظمة بمواطنين مهمين في شركات كبرى ذات سمعة عالمية ، كما كانت له علاقات بطلبة وطالبات وقعوا جميعاً تحت تأثير المخدر . . . ولذلك وعندما شوهدت شيرلي هايمان مع فريدريك بيكر عدة مرات ، بل عندما لوحظ أن لقاءاتهما كانت تتم في أماكن غير مزدحمة ، وفي أركان تكاد تكون خالية من الناس . . . فلقد وضع الأمر تحت احتمال بدا منطقياً للغاية ، وهو أن تكون مس هايمان ذات الحياة الهادئة المستقيمة ، قد وقعت بشكل ما تحت تأثير المخدر ، ولذلك . . . فهي تحرص على أن تكون لقاءاتها مع فريدريك ، بعيدة عن العيون حتى تظل سمعتها فوق مستوى الشبهات !!

وعلى كلٍ . . . فالذي حدث بعد ذلك بأسابيع كان لافتاً للنظر . . . وكان لابد من أن يلفت النظر !!

* * *

فعندما التقى نبيل سالم ذلك اللقاء الغريب بأبي سليم ـ ذلك التاجر السوري ذي الحافظة المنتفخة بالمال ـ بات ليلته وقد امتلأت معدته بالطعام ، كما امتلأ رأسه بالأحلام . . . نسي في غمرة ما حدث في تلك الليلة أن يسأل أبو سليم متى سيلقاه . . . وعده هذا بعمل مجز ووظيفة محترمة ورزق وفير ، ثم غادره وهو يصيح فيه إنه لابد من أن يلتقي به في اليوم التالي كي يتحدثا في أمور العمل . . . غير أن نبيل ، وقد استيقظ في الصباح ، اكتشف أنه لم يسأل الرجل عن موعد ولا مكان اللقاء فكاد يجن قلقاً . . . لقد التقى بالرجل في حانة وتناول العشاء معه في حانة أخرى . . . فأي الحانتين كان يقصد أبو سليم هذا ؟!

بالرغم من ذلك ، فإن نبيل سالم لم يركن لليأس بل تشبث بالأمل تشبث الغريق بقشة صادفته فوق سطح حياة صاخبة ممزقة . . . فلم يذهب للعمل يومها ، فضل أن يركن للراحة ذلك اليوم حتى يلتقي بالرجل صافي الذهن سليم القدم ، وحتى يجد وقتاً يغسل فيه قميصه ويهندم ملابسه . . . حتى إذا جاء المساء ، ذهب إلى الحانة الأولى مكث ساعة وبعض الساعة ، ثم انتقل إلى الحانة الثانية . . . وهكذا ظل نبيل سالم طوال تلك الليلة يتنقل من حانة إلى أخرى بحثاً عن أبي سليم ، دون أن يعثر له على أثر ، ودون أن يدري أن ثمة عيوناً كانت ترصد كل حركة من حركاته وأذاناً تستمع إلى كل سؤال يسأله ، وعقولاً تحسب بدقة شديدة ، ذلك القلق المروع الذي انتابه !

لم يعلم نبيل بطبيعة الحال شيئاً عن هذا ، ولقد عاد إلى غرفته مهدود الحيل ، عاد بعد منتصف الليل وكان الجوع يعض معدته فراح يبحث في ظلام الطريق ، وخلف المطاعم عن شيء يتبلغ به . . . حتى إذا دخل الغرفة فوجيء بواحد من النزلاء كان لا يزال مستيقظاً ، يخبره أن ثمة شاباً يدعى فريدريك بيكر قد جاء منذ ساعتين وسأل عنه !

واندفع نبيل مغادراً البيت مرة أخرى بحثاً عن فريدريك ، كان تورم قدمه يزداد مع كل خطوة يخطوها لكنه ظل معظم الليل يدور على تلك الحانات والأماكن التي تعود فريدريك التردد عليها . . . لكنه أيضاً لم يجد فريدريك !

في اليوم التالي ، لم يكن أمامه سوى العودة إلى عمله في ذلك المطعم الصغير !

ومرَّ يوم . . . ويومان . . . ثم على غير انتظار وعندما بلغ اليأس به مداه ! فوجيء نبيل بفريدريك يقف أمامه باسماً !

وانفجر نبيل فيه معاتباً !

انطلقت الكلمات من فمه بعنف لم يستطع السيطرة عليه ، كطلقات مدفع رشاش راح يصيح في وجه صديقه الألماني بكل ما أسعفته به لغته الألمانية العرجاء كقدمه . . . كان الآن في حالة يرثى لها من التعب والإرهاق وخيبة الأمل . . . أكثر ما كان يمزقه ذلك الخطاب الذي وصله بالأمس من سامية ،

ذلك الخطاب الذي تحدثت فيه عن نجاحاتها وحياتها وأملها في أن تلقاه قريباً ، والذي ضمنته بضع صفحات مزقتها من مجلة « الفجر » التي تعمل فيها ، وكانت الصفحات تحوي تحقيقاً صحفياً كتب فوقه اسمها بالخط الكبير لأول مرة ... في رأس الصفحة طالع نبيل اسم حبيبته سامية فهمي تحقق : كيف مات المستشار ... وكان التحقيق حول حادثة مروعة لسيارة في طريق السويس الذي اشتهر في تلك الأيام في الصحافة المصرية باسم « طريق الموت » لكثرة الحوادث التي وقعت فيه ... لم يقرأ نبيل من الخطاب إلا سطوراً تحولت إلى سياط تلهب ظهره ، لكن عينيه راحتا تلتهمان سطور التحقيق الذي بدت فيه سامية واثقة الأسلوب ثابتة الخطى ، كانت تكتب وكأنها واحدة من نجوم الصحافة المصرية ... ولم يحتمل نبيل ، مع ما كان يعانيه في ذلك اليوم فمزق الخطاب والتحقيق معاً !

... ...
... ...

تلقى فريدريك بيكر ثورة نبيل سالم باسماً ... كان متورد الوجه أنيق الملبس لامع البشرة مرح النظرات ، ظل الشاب الألماني صامتاً حتى انتهى نبيل من ثورته ، ثم قال بصوت ثابت :

« **لِمَ كل هذا الغضب يا صديقي ؟!** » .

« **أين كنت طوال تلك الأيام ؟!** » .

ضحك فريدريك صحكة ساخرة وهو يقول :

« **إنه العمل يا نبيل ... إنه العمل !** » .

« **ألست صديقي ؟!** » .

« **ولهذا سألت عنك !** » .

« **ولم لا تبحث لي عن عمل معك ؟!** » .

هز فريدريك كتفيه استخفافاً وهو يقول :

« **لأنك لم تطلب !** » .

وبدت إجابة فريدريك طبيعية للغاية ... تعلم نبيل الكثير عن هؤلاء الأوروبيين الذين يتعاملون مع الآخرين ، حتى ولو كانوا أصدقاءهم أو إخوانهم ، من منطلقات تختلف عن تلك التي يتعامل بها العرب أو الشرقيون ... أفحمته الإجابة لكنه لم يتراجع عن إنفعاله فصاح :

« **وها أنا اطلب منك أن تبحث لي عن عمل !** » .

« **لكن عملي محفوف بالمخاطر !** » .

« **ألا ترى حقارة الوظيفة التي التحقت بها ؟!** » .

« **لكن عملي محفوف بالمخاطر !** » .

هكذا أعاد الشاب الألماني جملته مرة أخرى وفي تأكيد لا يقبل الشك ، فصاح نبيل في تحدٍ :

« **ولسوف أقبل حتى ولو كان عملاً في الجحيم !!** » .

رمى فريدريك نبيل بنظرة أوقعته في الحيرة فعاد إلى الصياح :

« **إني أطلب منك عملاً يا فريدريك !** » .

« **هل أنت جاد فيما تقول ؟!** » .

« **لم أكن جاداً في حياتي مثلما أنا جاد الآن !** » .

« **لو أنك خطوت خطوة ... خطوة واحدة فلن تستطيع التراجع !** » .

« **لن أتراجع !** » .

« **ألا تريد أن تفكر في الأمر ملياً ؟!** » .

« **لقد فكرت !** » .

« **ألا تريد أن تعرف طبيعة هذا العمل ؟!** » .

« **أنا لا أريد إلاّ أن أرتدي ملابس مثل ملابسك، وأحيا حياة مثل حياتك، وأن أجد طعاماً يقيني شر الجوع والبحث عن لقمة نظيفة في فضلات الناس!**» .

بعد لحظة صمت لم تطل ، قال فريدريك :

« **إذن ... تعال معي !** » .

وتبعه نبيل سالم دون كلمة .

* * *

الفصل الرابع

سامية تكسر حاجز الحب !

قضت سامية فهمي ليلة عصيبة بحق ، كانت ـ لأول مرة في حياتها ـ لا تعرف بالضبط إلى أين تسير ، أو ربما ـ هكذا قالت لي بعد سنوات ـ إن سر عذابها في تلك الليلة ، أنها أدركت أكثر من أي وقت مضى ، إلى أين يجب أن تسير !! . . .

راحت تتذكر هذا الذي حدث في إيطاليا ، راحت تتذكر ـ بلا جهد يذكر ـ كيف كان نبيل ، كيف استقبلها ، وكيف قادها إلى « البرتو » سمسار السيارات ، وماذا فعل معها السمسار ، وكيف تغاضى نبيل عن تصرفاته ، وكيف هوّن الأمر عليها ، ثم . . . كيف التقيا بمصادفة بدت لها ـ بشكل غامض ـ مزيفة في مطعم البيتزا الشهير بالسنيور جارديني صاحب وكالة « ال . أم . دي » وكيف رحب هذا بها . . . وكيف وكيف وكيف . . . و . . .

« ما لك يا سامية ؟! » .

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تسألها فيها أمها عما بها . . . ربما كانت المرة العاشرة ، أو الألف لا تدري . . . لم تعد تدري بل هي لا تريد أن تعرف أو تدري . . . رفعت رأسها نحو أمها ، زحف الشيب إلى الشعر الفاحم ، أضاعت هذه السيدة عمرها من أجلها ، حرمت نفسها من الحياة ، رهنت زهرة العمر كي تربيها ، مضت لحظات صمت سالت فيها نظرة الأم مفعمة بالحزن والأسى .

« قلقانة عليّ يا ماما ؟! » .

وسال الدمع مع الحزن دون كلمة ، فقط . . . سال دمع السيدة إقبال حسين ناظرة مدرسة النصر للبنات . . . مضت لحظات صمت شحب فيها وجه سامية . . . بالأمس ، وحتى الأمس فقط ، كانت تستطيع أن تخبر أمها ، أن تشكو لها همها . . . حتى الأمس ومنذ عادت من تلك الرحلة المشؤومة من أجل سيارة لم تأتِ ، كانت تستطيع أن تقول وأن تبوح وتناقش . . . لكنها اليوم ، بل الآن فقط ، وبعد أن التقت بعادل مكي . . . لا تستطيع !!

« أنا مش محتاج أقول لك بلاش حد يعرف بزيارتك دي ! » .

« حاضر ! » .

« ولا حتى ماما ! » .

« هذا هو ما دار بينهما من حوار قبل أن تنصرف عنه مضعضعة الحواس والجسد ، هذا الرجل الذي تقطر كل جارحة من جوارحه بكل المخاوف رغم أنه لم يقل شيئاً . . . هذا الذي حمل صوته إليها تحذيراً يبدو كحد المقصلة . . . فماذا هي صانعة ؟!

نهضت من مكانها ، خطت نحو أمها ، الوجه الحزين والجمال الشاحب والعمر الذي ضاع فإذا دمعها يتجاوب مع دمع أمها في حوار لا تعرف لغته سواهما ، وإذا رأسها يميل كي يستريح فوق الكتف الحاني ، وإذا اليد الحنون تنسحب إلى الشعر فتتخلله ، وإذا كل منهما تضم الأخرى في حنان . . . و . . . ولا كلمة !!

* * *

« أنا مش عاوزه اضغط عليكي علشان تقولي لي إيه اللي بيكي . . . بس أنا عاوزه أكون جنبك لما تحتاجي لي ! » .

ناظرة هي دائماً ، مربية حتى وهي تمارس أمومتها . . . ولقد قالت لها أمها هذا الذي قالته ذات يوم بعد عودتها من إيطاليا بأقل من أسبوع ، قبل أن تنتبه إلى شيء ، قبل أن تعي ما حدث وما كانت مقدمة عليه . . . قالت لها ما قالت والشكوك لا تزال نطفة في رحم تفكيرها لم تتخلق بعد . . . عادت وهي تتظاهر

بالسعادة ، بل كانت تظن أنها سعيدة ، وصدقت ما قالته للناس من أن الإيطاليين عرفوا غرام المصريين بالسيارات المستعملة فاستخرجوا من مقابر السيارات كل هالك ومستهلك وعرضوه في الاسواق . . . قالت لأمها إنه لولا نبيل لوقعت في سيارة لا تستحق ربع ما كانت ستدفعه فيها ، قالت لها إنه تعب معها ، لف ودار وعاين وشاهد وناقش وفاصل ثم طلب منها أن تصبر حتى يجد لها ما يناسبها سعراً وقوة احتمال . . . قالت لها ، ولأصدقائها وصديقاتها كيف أصبح يتقن الإيطالية كأحد أبنائها ، وكيف أتقن الألمانية من قبل ، وكيف يعمل وكيف يكسب وكيف يحبه كل الذين التقت بهم ورأتهم . . . قالت كل هذا لأمها لكن نظرة الشك لم تغادر عيني تلك السيدة . . . مزقت نظرات أمها رداء حيرتها ، كشفت ـ رغم كل هذا ـ إحساسها الدفين بخيبة الأمل . . . هي تعرف أن « حضرة الناظرة » لا تثق في نبيل ولا توافق عليه ولا تأمن إليه . . . ولطالما ثارت بينهما المناقشات حامية الوطيس واحتدم بينهما الخلاف حول نبيل ، ثم جاء يوم وصلا فيه إلى طريق مسدود فاتفقتا على « وقف إطلاق النار » والكف عن مناقشة الموضوع . . . ترى : هل انتصرت حضرة الناظرة أخيراً . . . وهل انهزمت هي أمام قلب الأم وخبرة المربية ؟!!

يوم عادت ، وبعد أن قصت وحكت وفتحت الحقائب وقدمت الهدايا وتراقصت الكلمات على شفتيها فرحاً وأملاً . . . كان وجه أمها جامداً ، وعيناها تصبان عليها نظرات كاللهب . هتفت :

« مالك يا حضرة الناظرة ؟! » .

إبتسمت السيدة إقبال تلك الإبتسامة الحادة :

« إنتي اللي ما لك يا سامية ! » .

« قل !! » .

هكذا هتفت .

« كدابة ! » .

وهكذا جاءها الرد . . . فهربت !!

وظلت سامية فهمي تهرب ، يوما وأسبوعاً إثر أسبوع . . . وها هي اليوم وجهاً لوجه مع « أبلة الناظرة » ودموعها تنهمر كالمطر . . . مسحت دموع أمها ، ومسحت دموعها بعد أن اختلط الدمع والخد فوق الخد ، والشفاه تقبل اليد ، والذراع يضم والقلب يضطرب بحب يفوق الحد . . .

وتركت السيدة إقبال نفسها لابنتها ، راحت تنظر إلى وجهها الشاحب ، إلى عينيها الضائعة النظرات وهي تتساءل : ما الذي حدث لابنتها في إيطاليا ؟! . . . ومن أين اكتسبت سامية تلك النظرة الكابية ؟! . . . أين ضاع بريق عينيها ونظراتها المتألقة حتى في أحلك الظروف . . . هل اكتشفت أمر نبيل ووقفت على حقيقته أم أن هذا الشاب استطاع أن . . . أن . . . أن . . .

لا . . .

مستحيل . . .

لا يمكن . . .

ليست هذه سامية ولن تكون !

هي واثقة من ابنتها ثقتها من نفسها . . . فما الذي حدث إذن ؟!

كانت السيدة إقبال حسين ناظرة مدرسة النصر للبنات واثقة من أن هناك شيئاً قد حدث . . . شيء لاتعرفه وقد لا يخطر ببالها . . . لم تعد تعرف ، ولم تعد تستطيع أن تعرف . . . هل ذهب عرق العمر سدى . . . ؟! توفي زوجها في الخامسة والعشرين ، وكانت سامية في الخامسة . . . عشرون عاماً هي الفرق بينها وبين إبنتها . . . عشرون عاماً هي الفرق باليوم ، فلقد ولدت سامية في نفس اليوم الذي ولدت فيه الأم . . . ومنذ وفاة الزوج ، وحتى أصبحت سامية صحفية ، وحتى سرى اسمها على الألسنة ، وهي تحيا من أجلها ، ترى في كل فتاة علمتها حرفاً صورة من ابنتها . . .

ذات يوم سألها أحد أولياء الأمور :

« حضرة الناظرة ، ممكن أسألك سؤال ؟! . . . » .

« إتفضل ! » .

« أكيد فيه سر ورا إخلاصك الشديد ده لشغلك ! » .

« معاك حق ! » .

هكذا كانت دائماً . . . مستقيمة الحديث ، وهكذا كانت سامية أيضاً . . سأل الرجل :

« أقدر أعرف السر ده ؟! » .

« جداً ! » .

لم يَفُهْ الرجل بكلمة ، وأطرقت هي لثوان قالت بعدها :

« أنا باحس إن كل بنت في المدرسة هي سامية بنتي . . . جوزي توفي فجأة ، وهو واقف توفي ، جت له سكتة قلبية راح فيها في ثواني . . . من ساعتها وأنا باحس إن الموت قريب منتا قوي ، أقرب من أي تصور يخطر ببال أي حد فينا . . . وباقول ، لو حصل ومت زي المرحوم فهمي ما مات ، نفسي سامية تلاقي اللي يعاملها زي أنا ما باعامل بناتي !! » .

كانت تبتسم ، لكن الدموع صعدت إلى عيني الرجل الذي ألجمه الانفعال ، ظل صامتاً لثوان كان يغالب فيها الدمع . ثم نهض فجأة وهو يقول بصوت متهدج :

« ربنا يديكي طولة العمر ، وتشوفيها زي ما انتي عاوزه لها ! » .

وانفلت مهرولاً كي يخفي دموعه التي غلبته !

... ...

... ...

كانت الساعة قد جاوزت العاشرة مساءً ، وكان لابد لسامية أن تأوي إلى فراشها كي تصحو مبكراً لموعدها مع عادل مكي . . . ثم ، كان عليها أن تكتب موضوعاً للمجلة التزمت بتقديمه في اليوم التالي . . . ولقد حاولت ، منذ عادت من مبنى المخابرات وهي تحاول ، سألتها أمها أين كانت طوال اليوم ، فقالت :

« كان عندي ميعاد مهم قوي يا ماما ! » .

رغم غموض الرد فلم يكن الأمر غريباً ، ومنذ أن انضمت سامية إلى التنظيم الطليعي ونشاطها يتعدى عملها الصحفي إلى العمل العام ، إلى الشارع والناس ومحو الأمية والمشاغل والجمعيات والإتحاد الإشتراكي . . . وتعودت الأم ذلك النشاط ولم تنكره على إبنتها . . . وفي ذلك المساء الذي عادت فيه سامية من مبنى المخابرات العامة المصرية ، كان وجهها ينضح بتعب بلا حدود . . . حاولت الأم أن تستشف ما وراء هذا الكمد الرابض فوق الوجه المليح فلم تستطع ، جاءها رد إبنتها فتقبلته في صمت . . . نهضت سامية إلى غرفتها وجلست إلى مكتبها الصغير وكانت تشعر أن رأسها يزن أطناناً من الأفكار . . . تحسست المكتب في رجاء لم يفلح . . . هذا المكتب الذي لازمها منذ كانت في العاشرة فأصبح جزءاً من أفكارها وتفكيرها ، أخرجت الورق وأمسكت بالقلم وحاولت أن تكتب فاختلطت في رأسها الأفكار واحتدمت ، أدركت أن لا فائدة فألقت بالقلم ونهضت إلى التليفون ، طلبت أحمد مختار في مكتبه فصاح مرحباً قدر سماعه بصوتها :

« إنتي فين يا أستاذه ؟! » .

« مش عارفه أكتب ! » .

« ماتكتبيش ! » .

« ممكن أطلب إجازة ؟ » .

« من غير إجازة ! » .

ترددت قليلاً ثم غمغمت :

« حاحاول أقوم بدري وأكتب الموضوع بكره ! » .

« ما تتعبيش نفسك ! » .

رفضت مجاملته الزائدة فهتفت : **« أنا كويسة يا أستاذ أحمد ! » .**

« أنا على يقين من ده ! » .

لطفت حرارة حديثه من اشتعال النار في صدرها ، أنهت المكالمة وعادت إلى أمها ، جلست إلى جوارها وهمست في لوعة :

« ماما ! » .

« نعم يا حبيبتي ! » .

« احضنيني ! » .

وفتحت الأم ذراعيها ، وألقت سامية برأسها فوق الصدر الذي طالما احتواها بدفئه وحنانه ، مضت لحظات صمت إستمعت فيها إلى دقات قلب أمها ، تلك الدقات التي كانت تسعدها صبية ... هناك ، بعيداً في عمق الزمن عندما كانت الدنيا بلا مهالك ... غمغمت والندم يزحف إلى عينيها :

« إزاي أنكل محمود ؟! » .

« قلقان عليكي ! » .

« مش حاتتجوزوا بقى ؟! » .

« لما تتجوزي إنتي ! » .

« إنتي لسه بتثقي فيّ ؟! » .

« أكثر من أي وقت تاني ! » .

« لو قلت لك حاجة تصدقيني ؟! » .

« ميه في الميه ! » .

« ماتخافيش عليّ !! » .

وجاءتها الإجابة ... ذراعا الأم تضمانها في حنان ، فاحتواها النوم غالباً ... وعندما انتبهت من غفوتها ، كان صوت المؤذن يسبح في سماء الحي منادياً لصلاة الفجر ، وكانت رأس الأم قد سقطت فوق صدرها ... كانت هي الأخرى ، قد نامت !!

* * *

قال لي عادل مكي بعد ذلك التاريخ بسنوات عديدة ... إن أعظم ما لفت نظره في سامية ، شجاعتها النادرة في مواجهة الحقائق ... وإنه عندما عرف علاقتها بنبيل سالم ، واكتملت الصورة أمامه ... لم يكن لديه شك في أنها سوف تخطو ذات يوم في الطريق الصحيح ... ذلك أن السيدة إقبال حسين كانت واحدة من مدرسات إبنته الكبرى ، وإنه ، عندما شبت إبنته الصغرى عن الطوق ، أبى إلا أن يلحقها بالمدرسة التي كانت إقبال حسين ناظرة لها ...

قال : إن الأمر كان منطقياً للغاية ... وإذا كان الآباء ، وهو واحد منهم ، كانوا يتسابقون كي يضعوا بناتهم أمانة في يد سيدة كهذه ... فلابد وأن تكون إبنتها من نوع من البشر لا يقبل للفساد أن يتسلل إليه ... ولقد كان كل ما أرقه وأقلقه ... إنه عندما حسب الحسبة ـ هذا تعبيره بالضبط ـ أيقن أن سامية لابد وأن تطلب مقابلته قبل الموعد الذي طلبت فيه اللقاء بكثير ... قال : إن الإنسان قد يصل إلى دقة شديدة في حساباته بالنسبة لآلة أو مسألة اقتصادية أو جرم سماوي ، لكن الدقة في حسابات النفس البشرية ، أمر يصعب التيقن منه !

كان عادل مكي فخوراً وهو يحكي لي عن سامية فهمي !

قال : إنها عندما جاءت إليه في اليوم التالي ، بدت كمن كبر عشرة أعوام في ليلة واحدة ... وإنه عندما طلب منها تأجيل الحديث ، كان مدركاً لعنف الصراع الدائر في رأسها ... أدرك ، وقد تأخرت سامية شهرين وبعضاً من الشهر الثالث ... أن حبها لنبيل سالم كان من القوة والعنف بحيث أصبح من الصعب عليها أن تصرح ، حتى لنفسها ، بالحقيقة التي اكتشفتها بنفسها ولم تعد في حاجة لأن يكشفها لها أحد .

عندما جلسا معاً ، وعندما وُضع بينهما فنجاني القهوة ، سألها :

« إيه الأخبار ؟! » .

« تعبانة قوي يا عادل بيه ! » .

« أكيد !! » .

« عاوزني أبدأ منين ؟! » .

وابتسم ، فهتفت محتجة :

« يا أخي ممكن تبقى حنين علي شويه ؟! » .

« وهو أنا قلت حاجة ؟! » .

« عاوزني أبدأ منين ؟! » .

« من الأول خالص ! » .

في لوعة من يريد الخلاص حتى من نفسه اختنقت :

« آني أول فيهم ؟!! » .

وكانت هذه هي المشكلة التي راح عادل مكي يتحسس طريقه إليها ، لم يكن ممكناً أن يبدأ هو بذكر نبيل سالم ، بل . . . لم يكن ممكناً حتى بأن يُلَمّح بأنه يعرفه أو يعرف عنه شيئاً . . . إن المشكلة هنا تتعدى حدود العواطف والأحاسيس والتقدير الشخصي إلى أمن دولة وأمان شعب تسعى قوى الشر إلى تحطيمه والسيطرة عليه . . . قال لي عادل مكي إن النكسة كانت صدمة مروعة بالنسبة لمن كانوا مثله رغم أنهم كانوا يرون بشائرها وقد حذروا منها لكنها أيضاً ، كانت ذات فوائد عظيمة لمن استطاع أن يتعمق الأمور ويزنها بميزان دقيق . . . قال ـ وهو يضحك ـ إن كثيرين من أعضاء التنظيم الطليعي تحدثوا كثيراً عن « الدروس المستفادة » دون أن يدركوا عمق التعبير الذي كانوا يستعملونه . . . وكان أعظم الدروس المستفادة من النكسة ، إن أي شعب في الدنيا لا يتطور إلا بالتجربة التي يخوضها أفراده بذواتهم . . . ولذلك ، كان على سامية فهمي ـ حتى يقطع الشك باليقين ، وحسب قانون صارم لا يمكن تحت أي ظروف تجاوزه ـ أن تخطو وحدها ، وباختيارها المطلق إلى حيث كان يجب أن تخطو وتسير . . . كان عليها أن تواجه الحقيقة كاملة مواجهة صريحة لا لبس فيها ولا غموض !

ولكن . . . كيف السبيل ؟!

كان هذا السؤال الذي أرقه طوال تلك الليلة وفي رأسه مشاغل أخرى بلا حدود . . . وها هو صوت سامية وكأنها تخطو فوق سطح مياه شديدة العمق والخطر :

« أصل . . . أصل أنا لما سافرت إيطاليا ، كنت رايحة لخطيبي ! » .

واجتاحت السعادة جوانح عادل ، ها هي تكسر حاجز الحب . . . وها هو يستمع إليها تحكي عن خطيبها هذا الذي يعرف عنه أكثر مما تعرف هي بكثير . . . بكثير جداً !

* * *

عندما طلب فريدريك بيكر من نبيل سالم أن يصحبه ، وعندما صحبه دون كلمة ، كان يخطو خطوته الأولى في الطريق الوعر الذي سار فيه متنقلاً من مرحلة إلى مرحلة في وعي واضح . . . كان كل ما يعنيه الآن أن يملك مالاً ، وأن يبعد شبح الفشل حتى ولو كان النجاح مزيفاً !

قاده فريدريك في تلك الليلة إلى شقة صغيرة تطل على شارع من أهم شوارع المدينة . . . ولقد كان السؤال الذي يحير نبيل دائماً هو : من أين يأتي فريدريك بهذا المال الذي ينفقه في بذخ . . . ولقد حاول ذات يوم أن يسأل صديقه الألماني لكن هذا لم يجبه ، وعندما ألح نهره فريدريك بعنف وصلف فإذا هو إنسان آخر ، إذا به رجل قاسي الملامح صلب الوجه حاد النظرات :

« لا تسأل عما لا يعنيك ! » .

واكتفى نبيل ـ منذ ذلك اليوم ـ بالصمت ، اكتفى بصحبة الشاب الذي كان يسد احتياجاته من طعام وشراب ، ثم . . . ها هو يدلف إلى مسكن صغير أنيق يشي كل ركن فيه بذوق رفيع ، دارت رأس نبيل وهو يتذكر تلك الغرفة الحقيرة القذرة التي تجمعه كل ليلة مع أربعة من الشبان لا يعرف أحدهم الآخر ، والذين كانوا يقاسمونه أرضها وجدرانها ويتشاجرون فيها من أجل بضعة سنتيمترات . . . قاده فريدريك ، أول ما قاده في الشقة ، إلى الحمام :

« عليك أن تستحم أولاً حتى تتخلص مما علق بجسدك ! » .

اندفع الدمع إلى عيني نبيل ، فمع إحساسه بالضعة أمام فريدريك ، فلقد كان العهد قد طال به منذ دخل حماماً لآخر مرة . . . وكان الشوق قد طال إلى ملابس تستر خيبته وفشله !

« ستجد في الدولاب بعض الملابس عليك أن تستعملها حتى نشتري لك ملابس جديدة ! » .

نظر نبيل إلى صديقه في امتنان ، فابتسم هذا منبهاً :

« ولا تنسى وأنت تستحم ، إنك قبلتِ العمل حتى في الجحيم ! » .

هَمّ نبيل بسؤاله عن طبيعة العمل ، لكن فريدريك أردف :

« قبل ان تخطو خطوة ، عليك أن تكون مستعداً ! » .

لم يفهم نبيل فاستطرد هذا :

« أي تكون مستريحاً صافي الذهن ! » .

في تلك الليلة أكل نبيل كما لم يأكل في حياته ، ونام كما لم يعرف للنوم طعماً ، طلب منه فريدريك ألاّ يغادر البيت حتى يأتي الطبيب ويكشف على ساقه المتورمة ، عندما همّ بمغادرة البيت سأله نبيل :

« متى ستعود ؟! » .

« لن أعود الليلة ، فليس في البيت سوى غرفة واحدة للنوم ! » .

« إذن فكيف . . . . » .

رفع فريدريك يده آمراً فانصاع نبيل وصمت ، في صوت كحدّ السكين قال الشاب الألماني :

« عليك أن تتعلم فضيلة الطاعة دون سؤال ! » .

في الصباح التالي جاء الطبيب وكتب دواء ونصح نبيل بالراحة لثلاثة أيام قضاها في مشاهدة التلفزيون والنوم . . . اشترى له فريدريك ملابس داخلية وحذاء وثلاث قمصان وبذلة ، في اليوم الثالث سأله :

« هل أنت مستعد ؟! » .

« ماذا تقصد ؟! » .

« عليك أن تقابل الرجل الكبير ! » .

ولم يكن نبيل سالم يعلم ، أن هذا الرجل الكبير الذي ظل يستعد للقائه ثلاثة أيام كاملة ، ليس سوى ، أبو سليم ، ذلك التاجر السوري صاحب الحافظة المتخمة بالمال ، بلحمه ودمه !

* * *

الفصل الخامس

لكل شيء ثمن !

لم تكن المعلومات التي توافرت لضابط المخابرات المصري « عادل مكي » عن نبيل سالم ، تمثل شيئاً جديداً عليه . . . ففي تلك الأيام التي أعقبت هزيمة ١٩٦٧ . . . نشطت المخابرات الإسرائيلية نشاطاً في محاولة لاستغلال ذلك التمزق الذي دفع أعداداً هائلة من الشباب المصري دفعاً إلى أوروبا . . . كانت إسرائيل في تلك الأيام تملك إمكانات بلا حدود ، واستطاعت الدعاية الإسرائيلية ـ في الغرب كله ، وفي الولايات المتحدة الأمريكية على وجه الخصوص ـ أن تحصل على المزيد من المساعدات والمكاسب فوق ما كانت تحصل عليه بالفعل ، مما أعطاها إمكانات هائلة ، ولابد لنا من الإعتراف بأن المخابرات المصرية لم تكن تملك مثلها في وقت كانت البلاد فيه في حاجة ماسة إلى كل قرش !

وعندما جلست سامية فهمي ، في هذا اليوم التالي إلى عادل مكي ، وعندما كسرت حاجز الحب واعترفت بأنها سافرت إلى إيطاليا كي تلتقي بخطيبها . . . كان عادل يعرف الكثير عن نبيل وعمّا حدث له !

كان يعرف ـ مثلاً ـ أن الشاب الألماني موزع المخدرات فريدريك بيكر عندما ذهب إلى نبيل سالم في اليوم الثالث في تلك الشقة التي وضعه فيها في مدينة هامبورج الألمانية ، كان بصحبته فتاتان ألمانيتان باهرتا الجمال . . . وأن الجميع قضوا ليلة من تلك الليالي التي يسعى إليها بعض شباب العرب في أوروبا . . . وأنهم لم يكتفوا باحتساء الخمر ، لكنهم أيضاً دخنوا الماريجوانا . . . ولقد كان من الممكن أن تمضي الليلة على أحسن حال لولا

أن طلبت إحدى الفتاتين ، وكانت تدعى « مارتين » من فريدريك بيكر طلباً بدا لنبيل في أول الأمر غريباً . طلبت منه أن يعطيها حقنة ، فطالبها فريدريك ـ قبل أي شيء بالثمن ـ واحتجت الفتاة بأنها لا تملك نقوداً . . . وأنها إنما جاءت معه لأنها لا تملك ثمن الجرعة التي تحتاج إليها هذا المساء . . . وهو ، هو بالذات يعرف أنها إن لم تأخذ تلك الجرعة فسوف تصاب بما لا قبل لها به . . . غير أن فريدريك أصر على الرفض ، فألحت مارتين ، وازداد إصراره على أن تدفع الثمن أولاً . واحتدمت المناقشة بينهما ، ولعبت الخمر برأسيهما ، وتعالت أصواتهما ، وهجمت مارتين على حقيبته الجلدية الصغيرة التي لا تفارقه ليل نهار في عنف وشراسة ـ وكانت قد بدأت تلهث ـ وفتحت الحقيبة وراحت تعبث بمحتوياتها ، وتبعثرها . . . وأخذ فريدريك يحذرها ويطلب منها أن تكف ، ولكنها راحت تصرخ وتبكي وتتوسل وترتجف وكأنها فقدت صوابها تماماً . . . وأخيراً . . . وعندما عثرت على حقنة طبية أخرجتها من الحقيبة ، جنَّ جنون فريدريك وانقضَّ عليها كي ينتزع منها الحقيبة ، ويهوي على وجهها بصفعة أطاحت بجسدها كي يرتطم بالحائط !

تحولت مارتين إلى مخلوق يرثى لحاله ، راحت دموعها تنهمر مع لعابها وتكومت على الأرض والتصقت بالحائط وراحت ترتجف ، تحولت ثورتها إلى استعطاف وتوسل وتأوهات مزقت قلب صديقتها التي لم تستطع إحتمال ما كان يحدث فنهضت إلى حقيبتها وأخرجت بضع عشرات من الماركات الألمانية قدمتها لفريدريك . . . تناول منها الفتى النقود وقد انبسطت أساريره وسرعان ما راح يعد الجرعة ، وسرعان ما راحت مارتين تزحف على الأرض حتى وصلت إليه حتى إذا انغرس سن الأبرة في لحم ذراعها سرى مفعول المخدر في جسدها . . . أخذ ارتجافها يخف ويسكن لحظة بعد أخرى . . . ودقيقة بعد دقيقة !

كان نبيل يرقب ما يحدث أمامه صامتاً دون كلمة ودون أن يتدخل . . . بدا له الأمر غريباً ، بل إنه في لحظة من اللحظات ظن أنه يشاهد فيلماً سينمائياً عن الإدمان ، انعزل عن الجميع ، واستغرق فيما يحدث أمامه ، وقد أدرك ـ ولم

يكن الأمر في حاجة إلى ذكاء ـ طبيعة العمل الذي وعده به فريدريك . . . كما أدرك ـ بما لا يقبل الشك ـ من أين كان هذا الشاب الألماني يأتي بالمال يبعثره أمام عينيه بلا حساب ، من أين له بتلك الملابس الفاخرة ، وتلك الحياة الباذخة . . . ثم أدرك ، وقد كان السؤال يطوف بذهنه في الماضي دون أن يهتم به أو يتوقف أمامه ، لِمَ كان فريدريك بيكر يؤم تلك المناطق الفقيرة ، حيث الحانات ـ وعمال الميناء ، والبحارة ، والضائعين من أمثاله !

في تلك الليلة ، وعندما عادت مارتين إلى حالتها الطبيعية ، رفضت البقاء . . . لم تكن في حالة نشوة ، بل هي حالة غريبة تلك التي رآها عليها نبيل سالم ، هي حالة من الاستقرار ووضوح الرؤية . . . في البداية وبعد أن هدأت قليلاً ، نهضت إلى الحمام وأصلحت من حالها ، وأعادت مكياجها . . . ثم عادت إلى الجميع ، وكان فريدريك ، الآن مستغرقاً في مغازلة الفتاة الأخرى ، فإذا بمارتين تعلن أنها تريد الإنصراف وأنها لن تبقى . . . رفع هذا حاجبيه دهشة وهو يلتفت نحوها متسائلاً :

« ألم نتفق على أن نقضي الليلة معاً ؟! » .

ردت عليه وهي تخطو نحو الباب :

« لقد جئت معك لأني لا أملك ثمن جرعة الليلة ! » .

« ثم ؟! » .

« ثم إنك أخذت ثمنها . . . فلم البقاء ؟! » .

هتف فريدريك في لا مبالاة :

« فلتذهبي إلى الجحيم ! » .

ولم تذهب مارتين وحدها ، بل ذهبت معها صديقتها إلى حيث لا يدري نبيل سالم الذي ظل في مكانه صامتاً . . . ذاهلاً . . . كان فريدريك الآن يحتسي كأسه دون كلمة وقد خلا البيت إلا منهما ، حتى إذا مضت دقائق ثقيلة ، همَّ بالانصراف قائلاً :

« لسوف يراك الرجل الكبير غداً ! » .

حاول نبيل المقاومة ، هتف . . .

« ألا تخبرني عن طبيعة هذا العمل الذي تريدني فيه ؟! » .

نظر إليه فريدريك نظرة شديدة البرود ، كان الشاب المرح الوسيم قد تحول الآن إلى رجل صارم النظرات متحجر القلب . . . مضت لحظات قبل أن يقول وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة . . .

« ألم تعرف بعد ؟! » .

ألقى نبيل ببصره إلى الأرض مغمغماً . . .

« ولكني لا أعرف كيف . . . » .

قاطعه فريدريك وهو يغادر الغرفة . . .

« لكنك ستعرف . . . ستتعلم كل شيء !! » .

في تلك الليلة لم يأو نبيل إلى فراشه قبل طلوع النهار . . . كان يفكر فيما هو مقبل عليه ، راح يسترجع علاقته بفريدريك منذ أن التقى به لأول مرة ، راح يسترجع ما شاهده من علاقات بين فريدريك والعديد من الناس من كل المستويات ، راح يسترجع تصرفاته وتلك النظرات التي كان يتبادلها أحياناً مع قوم يظهرون ثم يختفون فيختفي . . . وفي الماضي ، لم يكن الأمر ليعنيه . . . لكن الآن أصبح موقناً من الحقيقة . . . إن عليه أن يعمل في توزيع المخدرات ، وها هو على موعد مع ذلك الذي أطلق عليه فريدريك اسم « الرجل الكبير » . . . وكان عليه أن يختار ، أن يقرر ، وأن يتخذ قراره قبل طلوع النهار !!

* * *

عندما استيقظ نبيل سالم في صباح اليوم التالي كان مضعضع الحواس والجسد معاً . . . ظن ـ وهو لا يزال بين اليقظة والنوم ـ أن ما حدث بالأمس لم يكن سوى حلم أو كابوس . . . لكنه الآن وقد جلس في الفراش وأشعل سيجارة ، كان عليه أن يواجه الحقيقة سافرة !

لم يفكر نبيل ، ولم يخطر بباله ، أن ما حدث بالأمس ـ بما فيه تلك الحقنة

التي رآها بعيني رأسه تنغرس في لحم مارتين ـ لم يكن سوى تمثيلية متقنة لعب أبطالها أدوارهم أمامه ببراعة فائقة ، لم يفكر نبيل ولم يخطر بباله أن فريدريك بيكر عندما غادره كانت الفتاتان تنتظرانه في سيارته أمام باب البناية ، وأن الجميع راحوايطلقون الضحكات وهم يتذاكرون منظره فاغر الفم مضطرباً يشاهد أداءهم المتقن بقلب واجف .

قال فريدريك وهو ينطلق بالسيارة في شوارع هامبورج ، وكان مرحاً سعيداً لأنه أدى المهمة التي أوكلت إليه على أكمل وجه .

« هل تصدقين يا مارتين أنني ظننت ذات لحظة أنك تتعذبين بالفعل ؟! » .

ضحكت مارتين وهي تصيح في سعادة . . .

« إذن فعليك أن ترشحني عند الرجل الكبير فلعله يجد لي مكاناً في إحدى شركات السينما أو التليفزيون ! » .

تضاحك الجميع فعادت مارتين إلى الحديث . . .

« ألا أستحق منكم هذا بعد كل هذه الخدمات التي قدمتها لكم ؟! » .

لم يخطر ببال نبيل ، أن الجميع في تلك الليلة احتفلوا بنجاح تمثيليتهم الصغيرة ، وأن مارتين كوفئت على آداء دورها بعدد لا بأس به من الماركات ، أضيف إليها مبلغ محترم لقاء الصفعة التي هوت على وجهها والتي رأت تلك الفتاة الألمانية أنها وحدها تستحق مكافأة خاصة !!

لم يفكر نبيل في كل هذا بطبيعة الحال ، لكنه كان يفكر في شيء آخر . . . كان يفكر فيما سيؤول إليه من فريدريك بيكر . . . كان يفكر في أن عاماً وبعض عام قد انقضت منذ أن غادر مصر دون أن يحقق شيئاً . كان يفكر في تلك الغرفة التي تجمعه مع أربعة آخرين ، وفي المطبخ الحقير لهذا المطعم الصغير القريب من الميناء . . . والذي يقف فيه من الصباح حتى المساء وسط بقايا طعام الزبائن والرائحة العفنة التي يستنشقها طوال اليوم . . . وكان يفكر ، قبل كل شيء فيما لحقه من فشل ، وفيما آلت إليه سامية من نجاح ، وفيما يمكن أن يقال عنه إذا عاد إلى مصر خائباً خالي الوفاض . . . كان يفكر إن كانت

سامية ـ الآن ـ سوف تقبله وقد أصبحت مشهورة معروفة لها مكانتها في المجتمع . . .

ظل نبيل طوال اليوم يتقلب على نار أشعلها إحساسه المضني بالفشل ، وتوجسه مما هو مقدم عليه . . . وحتى وصول فريدريك يبكر قبل غروب شمس هذا اليوم ، لم يكن نبيل سالم قد اتخذ قراره بعد !!

. . .   .

. . .   .

في صلفٍ وتعالٍ سأله فريدريك .

« **هل فكرت في الأمر** » .

أجاب نبيل :

« **فريدريك إننا قبل أي شيء صديقان وما أريد أن . . .** » .

قاطعه هذا :

« **لا دخل للصداقة في العمل يا نبيل ، العمل هو العمل !** » .

« **أعرف هذا . . . إني فقط أريد أن اسألك كصديق سؤالاً !** » .

« **ما هو ؟!** » .

« **أليست هناك مخاطر ؟!** » .

« **لكل شيء ثمن . . .** » .

« **أنت تعرف أني . . .** » .

تململ فريدريك في جلسته وهو يهتف :

« **نبيل ، لقد تحدثت عن الصداقة ، فما رأيك لو ظللنا صديقين فقط ، ونسينا كل شيء آخر ؟!** » .

صاح نبيل محتجاً . . .

« **ألا تقبل المناقشة ؟!** » .

عاد الوجه الجامد والنظرات الباردة والصوت الحاد والعجرفة :

« **في مثل هذه الأمور أيها الشاب لا يحتمل الأمر مناقشة أو تردداً !** » .

هَمَّ نبيل بالحديث فأردف فريدريك :

« **هل تعرف معنى التردد في مثل هذا العمل ؟!** » .

قبل أن يجيب نبيل استطرد هذا :

« **معناه أن تدخل السجن لعشر سنوات على الأقل !** » .

دق قلب نبيل بعنف ، فعاد فريدريك إلى الحديث :

« **وقد يكون معناه أن تقضي بقية عمرك وراء القضبان !** » .

أحس نبيل برغبة حارقة في الصراخ ، وكان هذا يهوي على رأسه بالكلمات :

« **وقد يكون معناه أن يأمر الرجل الكبير بإرسالك في رحلة سريعة إلى العالم الآخر !** » .

قفز قلب نبيل سالم إلى حلقه ، اختنق صوته بغصة جاءت بعدها كلمات فريدريك كالمطرقة :

« **نعم أم لا . . .** » .

« **نعم !!** » .

قالها نبيل في لهفة من يتعجل الموت ، قالها وهو يخطو إلى قدره الذي ابتغاه وأراده وعمل من أجله !!

* * *

بالرغم من شجاعة سامية فهمي وقدرتها الواضحة على مواجهة الحقائق ، بالرغم من أنها ذهبت في ذلك الصباح التالي للقاء عادل مكي ، وهي مصممة على مواجهة كل شيء والتخلص من هذا العبء مهما كانت النتائج ، فإن الأمر لم يكن بالسهولة التي تصورتها !

في الصباح كان الصمت هو اللغة السائدة بينها وبين أمها ، ألقت كل منهما تحية الصباح على الأخرى ، ثم انصرفتا إلى عاداتهما اليومية ، حتى إذا اجتمعتا على مائدة الإفطار ، لم تُخْفِ السيدة إقبال دهشتها قائلة . . .

« إيه اللي مصحيكي بدري النهار ده كمان يا سامية ؟! » .

غمغمت سامية . . .

« علشان عندي ميعاد الساعة تسعة ونص ! » .

« مع مين ؟! . . . » .

صمتت سامية لثوان ، كانت تنتظر هذا السؤال وكانت تنتظر هذه اللحظة . . . رفعت رأسها نحو أمها في مواجهة صريحة :

« مع مسؤول باناقش معاه موضوع مهم ! » .

« هو التنظيم الطليعي رجع يشتغل تاني ؟! » .

وكأن أمها قدمت لها الحجة والمخرج :

التنظيم ما وقفش يا ماما ، ومش لازم يقف ! » .

... ...

... ...

وهكذا ـ وعندما قالت سامية ما قالت في ذلك الصباح الذي كانت تستعد فيه للقائها الثاني مع عادل مكي ـ عادت السيدة إقبال إلى الصمت مرة أخرى وقد أحست أن هذا الصمت قد أصبح لغة متداولة بينها وبين إبنتها في الأيام الأخيرة . . . كانت الليلة الماضية بالنسبة إليها مرهقة فكرت في سامية كثيراً ، فيما انتابها منذ عودتها من إيطاليا من سهوم لم تعرف ـ بالتحديد ـ سببه . . . غمغمت وهي ترشف من فنجان الشاي رشفة :

« عمك محمود عازمنا الليلة على المسرح ! » .

صمتت سامية مفكرة لثوان :

« ما اعتقدش إني حاقدر ! » .

« حاتتأخري ؟! » .

زفرت سامية منهكة :

« مش عارفة يا ماما ! » .

التفتت السيدة إقبال نحو إبنتها . . . رمتها بتلك النظرة النافذة المتعالية الآمرة التي تعودت أن تواجه بها تليمذاتها إذا ما أخطأت إحداهن . . . ابتسمت سامية على الفور وهي تمد يدها إلى يد أمها هامسة :

« إنتي قلتي امبارح إنك بتثقي فيّ » .

تخاذلت النظرة الصارمة بادلت الأم إبنتها تلك النظرة المتهاوية وهزت رأسها إيجاباً وهي تنهض قائلة :

« أقول لمحمود إنك مش جاية معانا ؟! » .

« قولي له يوفر تمن التذكرة ، أنا أقدر أجيب دعوة ! » .

في السابعة والنصف خطت الأم نحو الباب مغادرة وكانت سامية لا تزال جالسة إلى المائدة تتلاعب بكوب الشاي الفارغ توقفت السيدة إقبال عند الباب والتفتت نحو إبنتها :

« مش عاوزه حاجة يا سامية ؟! » .

قفزت سامية فجأة وهي تندفع نحو أمها . . . فوقفت أمامها . . . أمسكت بكتفيها ، ابتسمت ، برقت عيناها بذلك البريق الذي افتقدته منذ عودتها ، قالت في محاولة للمرح :

« أيوه عاوزه يا حضرة الناظرة ! » .

« عاوزه أيه ؟! » .

« مش عاوزاكي تقلقي عليّ ! » .

همت الأم بالرد فأردفت سامية :

« وعاوزه ثقتك في تفضل زي ماهي ! » .

اعتدلت إقبال في وقفتها :

« عارفة إيه الغلط اللي إنتي واقعة فيه ؟ » .

« غلط ؟! » .

هكذا تساءلت سامية فضحكت أمها قائلة :

« انتي يا بنت بتعامليني كأني ناظرة وبس » .
رفعت سامية حاجبيها دهشة فأردفت أمها :
« ونسيتي أمك ... نسيتي إني أم !! » .
ارتجف الصوت الحاسم فخفق قلب سامية وهي تهمس :
« خايفة عليّ ؟! » .
« قوي !! » .
أطرقت سامية مستسلمة وهي تسير مبتعدة :
« عندك حق !! » .
« مش عاوزه تقولي لي حاجة ؟! » .
« ما اقدرش !! » .

قالت لي سامية فهمي فيما بعد ، إنها أبداً ـ وحتى تدخل القبر ـ لن تنسى تلك النظرة المهولة التي تهاوت من عيني الأم ... قالت إن كلمة التجسس أو الجاسوسية أو ما إلى ذلك لم تكن أبداً تخطر ببال الناس في تلك الأيام إلاّ مقرونة بالهول ذاته ... قالت إن المصريين يعشقون بلادهم إلى حد يصبح فيه التجسس كلمة مرادفة في نفوسهم للكفر ... قالت إنها لا تدري إن كانت أمها عرفت في تلك اللحظات أن ثمة أمراً خطيراً تخفيه عنها أم لا ... كل ما تعرفه أن أمها أطلقت عليها تلك النظرة الرهيبة ثم استدارت وغادرت البيت .

ولذلك وخلال الساعة التي انقضت حتى غادرت سامية بيتها ذاهبة إلى موعدها مع عادل مكي ، كانت قد اتخذت قرارها بالتخلص من الأمر كله مرة واحدة ...

ولكنها ... لم تكن تعلم أن هذا مستحيل .

* * *

الفصل السادس

هل تعرفين الأبجدية ؟!

غادرت سامية فهمي بيتها في ذلك الصباح وقد اتخذت قراراً لا رجعة فيه ـ هكذا قالت لنفسها ـ بأن تواجه الأمر مهما كانت وعورته ، وأنه إذا كان عادل مكي قد طلب منها أن تكتم زيارتها له عن كل إنسان حتى عن أمها ، فهي لا تستطيع أن تواجه نظرات أمها تلك ، فلا بد أن تخبرها بالأمر حتى تعفيها من عذاب هي تعرف عن يقين مدي تأثيره على تلك السيدة !

في حِدّة واجهت عادل ، وقبل أن يصل فنجانا القهوة اللذان طلبهما :

« سيادتك طلبت مني إني ما اقولش حاجة عن الموضوع ده لأي حد ... حتى لماما ! » .

اعتدل عادل مكي في جلسته ، وزفر زفرة من يستعد لمعركة ، أجاب :
« وما زلت ! » .
« بس ماما تعبانة جداً ! » .
« من إيه ؟! » .
هتفت محتجة :
« إلاّ من إيه ؟ ... أمي حاسة إني تعبانة ، وبتسألني ! » .
« هي سألتك قبل كده ؟! » .
« طبعاً ! » .
« قلتي لها حاجة ؟! » .

وأحست سامية أنها محاصرة ، أحست لحظة أن الكتمان ليس ترفاً يطلبه منها عادل مكي ، ولكنه ضرورة لا تملك هي ولا يملك هو حيالها شيئاً ، ابتسم

عادل تلك الإبتسامة الرقيقة فسألته وكأنها تهرب :

« دلوقت إنت عاوزني أبدأ منين ؟! » .

رغم فرحة عادل مكي بتلك الخطوة التي خطتها سامية عندما كسرت حاجز الحب قائلة إنها ذهبت إلى إيطاليا كي تقابل خطيبها ، فإنه كان يعرف أن الطريق ما زال طويلاً . . . وهو ، في تلك الحالات ، يترك لمحدثه حرية الحديث من حيث يريد ، ويتركه يحكي كما يشاء ، ثم . . . ثم في لحظة بعينها ، وعند نقطة يصبح تصحيح الأحداث أو ترتيبها أمراً لا مناص منه ، يطلب من محدثه أن يتوقف ، وأن يعود القهقرى ، وأن يتذكر جيداً . . . وهنا يصبح الإنسان أسلس قياداً . . . لكنه كان يعلم أن سامية فهمي ـ بحسها المتزايد بالأشياء ـ كانت تدرك بشكل غامض أنها لا تسير في الطريق مباشرة ، ولذلك ، فلقد ترددت كثيراً ، كانت تخطو خطوة ثم تتراجع . . . و . . . وتسأل ، وتلف ، وتدور . . . وهي لا تدري أن الوقت من ذهب ، وأن كل ساعة تمضي كانت تحمل من المخاطر ما لا يخطر لها على بال . . . وعلى كل ، فلقد كان عليه أن يتذرع بالصبر ، فاعتدل في جلسته ، وقال وهو يضغط على مخارج ألفاظه :

« من الأول يا سامية ! » .

« ما أنا سألتك أنهي أول فيهم ما رديتش عليّ ! » .

هنا ، أدرك عمق الأزمة التي تواجهها هذه الفتاة ، فابتسم مخففاًعنها :

« تعرفي الأبجدية ؟! » .

ضحكت ، لكنها قالت كالدامعة :

« إنت إيه رأيك ؟ » .

« تعرفيها يا سامية ؟! » .

هتفت متمردة :

« بطل تعاملني كأني طفلة ! » .

« تعرفيها ؟! » .

« أعرفها ! » .

« بتبدأ منين ؟! » .

« من الألف ! » .

« ابدئي من الألف ! » .

« ياااه !! » .

ساد الصمت لثوانٍ قال بعدها وكأنه يمسك بيدي طفل كي يعلمه السير :

« إنتِ قلتي إنك رحتي إيطاليا علشان تقابلي خطيبك ! » .

« أيوه !! » .

« مين خطيبك ده ؟! » .

إنفجرت دموعها ، إنفجرت في بكاء حار ، اقتلعت قلبها وهي تقول :

« نبيل سالم » .

* * *

عندما قصت عليَّ سامية لقائها الأول بنبيل سالم في بوفية الجامعة ، وعندما استطردت في قصة حبها، وكيف بدأت وكيف نشأت وكيف نمت وترعرعت، هالني أمر غريب . . . هالني أن هذه الفتاة التي تبدو وكأنها كاملة الأوصاف ، كانت كمن أصيب بالعمى وفقد المنطق عندما وقعت في الحب . . . وإذا كان نبيل سالم ـ كما قال لي عادل مكي ـ نوعاً من الشباب الذي يبدو وكأنه لا عيب فيه ، بل يبدو للوهلة الأولى من هذا النوع من الناس الذي يستطيع جذب انتباه الآخرين وتجنيدهم ـ هذه كلمة عادل مكي بالنص ـ لحسابه . . . فإن أي منطق في التفكير ، لا يستقيم مع كل هذه المظاهر والوقائع التي كانت تشير إلى حقيقة نبيل . . . تلك الحقيقة التي تصرخ بها تصرفاته ، وهي أنه شاب تعجز إمكاناته عن بلوغ طموحاته . . . وهو ـ أمام هذا العجز ـ على استعداد لأن يفعل أي شيء ـ وكل شيء ـ في سبيل تحقيق مأربه !

وعلى كل . . . فلقد راحت سامية تقص على عادل قصة لقائها بنبيل . . . وكيف أنهما منذ أول لقاء أحسّا أنهما إنما خلقا من معدن واحد . . . قصَّ عليها نبيل قصة خلافاته الدائمة مع أبيه ، وعلل فشله في الدراسة بعدم رغبته في كلية التجارة ، ثم . . . ثم أدخلها معه في ذلك الصراع الدائم في بيته . . . لكنها

استطاعت أن تكبح جماحه . . . ذلك أن سامية أحست أنه بالرغم من تمرد نبيل ، فإن مشكلته تتلخص في حاجته الشديدة إلى إنسان يفهمه ، ويحترم أفكاره . . . شعرت ، ثم عرفت ، أن خلافه مع والده يشكل نقطة ضعف رهيبة في حياته ، ذلك أن نبيل بالرغم من هذا الخلاف ، كان يحب أباه حباً عظيماً ، ويشعر ـ في نفس الوقت ـ بأن أباه لا يبادله هذا الحب . . . قالت سامية إن نبيل كان مخطئاً في إحساسه هذا، كل ما في الأمر، أن والد نبيل، الأستاذ سالم مصطفى عبد الله الموظف بإحدى إدارات وزارة الأوقاف، كان يحب ولده بأسلوبه الخاص وعلى طريقته . . . وهي ، عندما التقت بالأب بعد سفر نبيل إلى الخارج وغيابه ، ذلك اللقاء الذي ذهب فيه الرجل إليها ، تأكدت أن ظنونها كانت في محلها ، وأن تمرد نبيل كان سببه عدم إدراكه لطبيعة إحساس الأب الريفي الأصل بإبنه وما يريده له وما يريده منه .

قالت سامية لعادل مكي إن معدن نبيل معدن جيد ، وإن لديه من القدرات ومن الذكاء ما كان يؤهله لأن يصنع لنفسه مستقبلاً زاهراً . . . وكان دليلها على ذلك ، أنه في العام الذي التقت فيه به ، نجح في الكلية وفي الفترتين ، نجاحاً ملحوظاً :

وإذا كنت مش مصدقني يا عادل بيه ، تقدر تروح الكلية وتطلع على المستندات بنفسك ! أدرك عادل مكي أن سامية ـ دون أن تدري أو تنتبه ـ نصبت نفسها محامياً عن نبيل ، وأدرك بالتالي أنها تشعر بأنه مذنب . . . لذلك فلقد لزم الصمت حتى استطردت :

« نبيل كان ممكن يبقى إنسان نافع للبلد بكل المعاني ! » .

« أفهم من كده إنه ما أخدش البكالوريوس ؟! » .

كان عادل بطبيعة الحال يعرف أن نبيل لم يحصل على البكالوريوس ، لكنه أراد بسؤاله هذا أن يكشف سراً من أسرار هذا الفتى الذي أصبح يشكل خطراً حقيقياً على بلاده . . . ولقد أطرقت سامية ، أطرقت طويلاً ، وكانت عيناها لا تزالان مبللتين بالدموع عندما استطردت في الحديث :

« نبيل فيه عيب خطير جداً أنه معتد بنفسه أكتر من اللازم . . . ولما حاجة

تطلع في دماغه ، لا يمكن يتراجع عنها أبداً ! » .

« حاجة زي إيه ؟! » .

« لما نجح في سنة ثالثة من أول سنة ، كان شايف إن ده دليل كافي على إنه قادر على النجاح . . وفي نفس الوقت ، كان شايف إن والده لازم يحترم رغباته بقى ! » .

« رغباته في إيه ؟! » .

ترددت سامية قليلاً لكنها قالت :

« عادل حب إن علاقتنا لازم تبقى رسمية ! » .

اختنقت ، غالبها الدمع فغلبته واستمرت :

« أنا ما كنتش موافقة على موقفه طبعاً ، حب يخطبني من ماما ، وماكنش ممكن ان ماما توافق على خطوة زي دي من غير والده ما يكون طرف في الموضوع ! » .

« ووالده رفض ؟! » .

« طبعاً كان لازم يرفض ! » .

« وبعدين ؟! » .

« كان لازم تدب بينهم خناقة . . . ووالده في الحقيقة أب عادي ، أب مصري ، أب زي كل أب ممكن تطلع منه كلمة تجرح إبنه من غير ما يكون قاصدها ! » .

« كلمة زي إيه ؟! » .

« وهم بيتخانقوا ، والده قعد يصرخ فيه ويقول له : مش كفاية إني باصرف على بغل زيك عاوز تجيب لي تلقيحة أصرف عليها معاك !! » .

وصمتت سامية !

لم يكن هناك ما يمكن أن يقال أكثر من . . .

« الحكاية دي جرحته جداً ، ومن يومها وهو . . . وهو . . . مش عارفة أقول لك إيه ؟! » .

« قولي كل حاجة ! » .

صاحت بصوت ممزق :

« وده ماله ومال اللي أنا جاية لك علشانه ؟!! » .

وكان هذا ـ بالتحديد ـ هو بيت القصيد . . . كان على سامية فهمي أن تفهم ، وتقتنع ، بأن مثل هذه التفاصيل التي يسعى إليها ضابط المخابرات ، ليست من قبيل التزيد أو حب الاستطلاع أو النميمة . . . ولكنها تدخل في صميم الموضوع الذي من أجله جاءت . . . كان عادل مكي ، الآن ـ وعلى سبيل المثال ـ يسعى إلى شيء قد يكون كامناً في الطريق ، شيء قد يكون هو الذي قاد نبيل إلى ما وصل إليه . . . ولكم أراد أن يقول ، كم أراد أن يحنو عليها ويشرح ويستفيض في الشرح ، ولكنه كان أول العارفين ، بأن هذا من رابع المستحيلات !

* * *

في مساء ذلك اليوم الذي كان على نبيل سالم أن يلتقي بمن أطلق عليه صديقه الألماني فريدريك بيكر اسم الرجل الكبير ، وبعد الغروب بقليل ، كان نبيل يخطو مبهور العينين والأنفاس ، إلى واحد من تلك المقاصف الفاخرة في مدينة هامبورج بصحبة فريدريك . كان وكأنه إنسان آخر لا يمت بصلة إلى هذا الشاب الضائع الذي كأنه منذ ثلاثة أيام . . . كان مستريح القسمات اختفى العرج من مشيته بعد أن شفيت قدمه ، وكان يرتدي ملابس جديدة تماماً ، ابتداء من ملابسه الداخلية وحتى رباط العنق الأنيق الذي يزين عنقه وصدره . .

الغريب في الأمر ، أن نبيل ـ وقد جاءه فريدريك بتلك الملابس الجديدة ـ لم يتوقف لحظة أمام سؤال يبدو بديهياً : فكيف عرف فريدريك مقاسات نبيل ولم يكن قد سأله عنها ، ثم . . . من الذي دفع ثمن هذه الملابس الغالية . . . أو . . . من الذي سوف يدفع الثمن !! . . . وحتى ، وعندما سئل نبيل فيما بعد ، إن كان قد فكر في الأمر أو خطر بباله أن يسأل ، بدت عليه الدهشة ، وتلعثم ، لكنه لم يحر جواباً !!

وعلى كل . . . فبالرغم من سعادة نبيل وانبهاره بذلك المقصف الذي

دخله ، فلقد كان من المحتم أن يصاب هذا الفتى باضطراب مبعثه ذلك الانتقال المفاجيء ، من حضيض مطبخ في أحد المطاعم الرخيصة . . . والقريبة من الميناء . . . إلى مستوى اجتماعي لم يحلم يوماً بأن يؤمه أو ينتمي إليه في ألمانيا الغربية . . . غير أن اضطرابه هذا قد أضيف إليه دهشة بالغة وهو يرى بعينيه ويسمع بأذنيه كيف رحب العديد من رواد هذا المقصف بفريدريك بيكر ، وكيف عاملوه معاملة الند ، بل إن بعضهم كان يتودد إليه بشكل واضح !

ما أن استقر بهما المقام حول إحدى الموائد حتى سأله نبيل :

« هل سنلتقي بالرجل الكبير هنا ؟! » .

« ربما !! » .

« ومتى سيأتي ؟ » .

رماه فريدريك بنظرة صارمة همس بعدها من بين أسنانه :

« ألم أقل لك بالأمس إنك كثير الفضول كثير السؤال » .

واحتج نبيل متمرداً :

« من تظنني أيها الفتى . . . أليس من حقي أن . . . » .

وارتفع في المقصف صوت عريض ، ما أن سمعه نبيل حتى توقف عن الحديث متلفتاً .

« أهلين أهلين أخي » .

كان ذهول نبيل عظيماً وهو يرى أبا سليم يتقدم منه فاتحاً ذراعيه في ترحاب أثلج صدره ، حانت منه نظرة نحو فريدريك فإذا الدهشة تطل من عينيه صارخة ، كما خيل إليه في لحظة ، أن اضطراباً قد اعترى هذا الشاب الألماني القاسي القلب . . . وإذا هو ينهض معه لاستقبال أبي سليم في ترحاب واحترام بالغين !

« وينك أخي . . . وينك نبيل . . . ليش ما جيت في الموعد ؟!

همَّ نبيل بالرد عندما التفت أبو سليم نحو فريدريك متحدثاً بالألمانية في طلاقة :

« فريدريك أيها الشاب ... لكَ لِمَ لَمْ تخبرني بأنك تعرفت على صديقي ؟! » .

كاد نبيل من الفرح وهو يتمرغ في ترحاب الرجل السوري الذي منَ الواضح - أنه يحتل مكانة مرموقة في هذا المقصف الرفيع المستوى ... وسرعان ما جرفه أبو سليم في حديثه المنطلق المرح ، أمر الرجل بشراب وطعام وتحدث في كل شيء وأي شيء ، كان نبيل رغم سعادته ذاهلاً وهو يرى فريدريك ، الذي كان منذ دقائق يؤنبه تأنيباً مهيناً ، وهو يتضاءل أمام صديقه السوري ... ولقد تمنى نبيل في لحظة ، أن يعدل فريدريك عن لقاء الرجل الكبير ، وتمنى أن يجد له هذا الصديق السوري عملاً ... حتى إذا حانت لحظة نهض فيها فريدريك لبعض حاله ، مال أبو سليم نحوه قائلاً في همس وقد اتخذ وجهه وصوته نبرة جادة وحازمة ، وفي لهجة مصرية خالصة :

« إنت وراك حاجة بكرة ؟! » .

أخذ نبيل بالسؤال واللهجة معاً ، حملق في أبي سليم بنظرة من لا يعرف بم يجيب ، لكن هذا بلهجة حازمة آمرة أردف وقد عاد إلى اللهجة السورية مرة أخرى :

« لا تغادر بيتك حتى أتلفن لك !! » .

رد نبيل في حرج :

« بس يمكن فريدريك .... » .

« ما لك دعوة بها الألماني .. انتظر مكالمتي ولا تخبر فريدريك أو غيره بها !! » .

أراد نبيل أن يسأل أو يستفسر ، لكن فريدريك كان قد عاد ، وانطلق أبو سليم في حديثه المرح من جديد !

... ...

... ...

لم يسأل نبيل نفسه من أين عرف أبو سليم إنه يسكن في بيت وان في البيت

تليفوناً ، لم يتوقف لحظة أمام سؤال بسيط وهو : كيف عرف أبو سليم برقم التليفون ... ترك نفسه للغفلة متعلقاً بوهم نجاح مزيف . حتى جاءته الحقيقة كالصاعقة ... فما أن مضى نصف ساعة حتى غادرهما الرجل السوري هاشاً باشاً كما جاء ... وقال لنبيل وهو يصافحه في حرارة :

« إبقى خلينا نشوفك يا أخي ! » .

مضت لحظات كان نبيل يشعر فيها بالسعادة وهو يرقب فريدريك الذي بدا الضيق واضحاً عليه .

« لماذا لم تخبرني أنك تعرف أبو سليم يا نبيل ؟!! » .

الآن رد نبيل عليه في ثقة :

« لأنك لم تسألني يا فريدريك ! » .

« ومتى تعرفت عليه ؟! » .

ضحك نبيل ضحكة خفيفة وهو يرد له الصاع :

« يبدو أنك أصبحت كثير السؤال وكثير الفضول !! » .

لزم فريدريك الصمت ، فسأله نبيل :

« متى يأتي الرجل الكبير ؟! » .

بدت الدهشة صاعقة على وجه فريدريك بيكر الذي هتف :

« لكنك التقيت به فعلاً أيها المصري الماكر !! » .

فغر نبيل فمه دهشة وقد اضطرب اضطراباً عظيماً حاول السيطرة عليه بقدر الإمكان ... لقد كان في حاجة إلى عدد لا بأس به من الدقائق حتى يستوعب الأمر ، وحتى يفهم ، أن أبا سليم ليس سوى الرجل الكبير بلحمه ودمه !!

* * *

بالرغم من كل ما كانت سامية فهمي تكابده وهي تدفع بذاكرتها إلى الوراء كي تحكي لعادل مكي كل شيء عن علاقتها بنبيل سالم ... فإن ثمة إحساساً عميقاً كان ينتابها فكأنها تضع عن كاهلها حملاً ثقيلاً ... قالت لعادل إنه جاء

عليها وقت أحست فيه أن نبيل كان عادياً مع كل البشر ما عداها ، كان خلافه مع أبيه يحتدم ويتزايد يوماً بعد يوم منذ أن رفض التقدم إلى أم سامية كي يخطبها له منها . . . ولقد تزايدت عصبيته أكثر من موقف السيدة إقبال حسين التي أصرت على ألاّ تستقبل نبيل وحده ، ولقد أحس ـ بطبيعة الحال ـ حقيقة موقفها تجاهه . . . قالت سامية إنها تعلم أن كل هذا قد يهون على نبيل ، لكن الذي شكل ضغطاً غير عادي بالنسبة إليه هو موقفها الذي أعلنته بوضوح . . . قالت لنبيل إنها تحبه ، هذه حقيقة لا تملك حيالها شيئاً ، ولكنها ترى أن أباه وأمها ـ كليهما كان على حق في موقفه . . . كانت ترى أنه لو تقدم لخطبتها فلن يزيد الأمر شيئاً بالنسبة لعلاقتهما ، وأن الحل الأمثل لموقفهما هو أن يحصل على البكالوريوس ، ويبحث عن عمل ، ولسوف يصبح الأمر بعد ذلك طبيعياً ومنطقياً !

« إنتي بقى اللي مش عاوزاني ! » .

هكذا قال لها نبيل وكان جوابها سيلاً من التأنيب ومعركة انتهت بخصام دام أياماً ثم عادا بعدها إلى ما كانا فيه .

قالت سامية : إنه شيء كالقضاء والقدر هذا الذي ربطها بنبيل سالم ، ولطالما حاولت أن تأخذ موقفاً يتفق مع منطقها للأشياء دون جدوى ، كان إحساسها بحاجة نبيل إليها يدفعها إلى التغاضي عن الكثير من تصرفاته التي راحت تسوء يوماً بعد يوم ، حتى انتهى العام وكانت النتيجة فشلاً ذريعاً لنبيل ، ونجاحاً متميزاً لها . . . فلم يستطع البقاء في مصر أكثر من ذلك !!

... ...

... ...

كان هذا في صيف ١٩٦٥ ، وكان نبيل قد وصل إلى حالة من الثورة والضيق جعلت منه شخصاً لا يطاق . . وهي لا تدري على وجه اليقين متى نبتت في رأسه فكرة السفر إلى الخارج ، كانت في تلك الأيام ، ومع الشعور العام في مصر بالانتماء إلى هذا البلد الذي كان مفخرة لأبنائه، ترى في الهجرة جرماً لا يدانيه جرم . . . كانت ترى ـ ولا تزال ـ ان مصر أولى بأبنائها ، وإن

كانت الكفاءات التي تعيش في الخارج ، إنما هي ثروة قومية مهدرة لا بد لها من العودة إلى بلادها كي تستثمر فيها جهودها . . . حقاً ، كانت في تلك الأيام صغيرة السن لا تزال طالبة في كلية الآداب ، لكن الشعور بالوطن لا يقاس بعمر أو مهنة أو وظيفة . . . غير أن نبيل عندما طرح عليها فكرة السفر ، طرحها كسياحة . . . ومع بداية الاجازة الصيفية ، راحت أفواج الشباب تسافر إلى أوروبا كي تعمل في المزارع ـ خاصة مزارع الكروم في فرنسا ـ وأصبحت حياة نبيل جحيماً ، فلقد كان أمراً طبيعياً أن يعترض والده على سفره وأن يحتدم الخلاف بينهما . . . لولا تدخل أم نبيل التي رأت في فشل ولدها أمراً من الممكن تداركه . . . وكانت هي التي تصدت لزوجها وأقنعته بالموافقة على سفر ولدهما ، لعله من ناحية يكتسب بعض الخبرات ، ومن ناحية أخرى يروح عن نفسه بعد أزمة رسوبه !

قالت سامية إنه يسيطر عليها إحساسها بالذنب لأن موقفها من سفر نبيل كان سلبياً ، وبرغم حبها الشديد له فإنها لم تستطع إلاّ أن تعلنه برأيها في وضوح وصراحة . . . ولقد سافر بنيّة التغيب لأسابيع لن تزيد على الشهرين . . . وعندما وصلت السفينة التي أقلته إلى فينسيا ، كتب لها خطاباً يعلنها فيه بقراره الذي لم يطلع عليه أحداً ، كان الخطاب ملتهباً بحب بلا حدود أيقظ في نفسها الأمل في أن يثوب إلى رشده ، رغم أن قراره كان عدم العودة إلى الوطن إلاّ بعد أن يُكَوِّن نفسه ويعرف طريقه . . . قال نبيل سالم فيما قال : إنه لا يعرف ماذا سيفعل على وجه التحديد ولا إلى أين هو ذاهب ، لكنه يحمل في صدره أملاً عظيماً في بناء مستقبل تفخر به !

ثم اختفت أنباء نبيل ، وأصيبت سامية بما يشبه الإكتئاب ، أحست أنها كانت واحداً من أسباب هروبه ، وأنها لم تتفهم موقفه جيداً ، وأنها لم تقف إلى جواره كما ينبغي . . . حتى إذا مضت شهور ، وصلها منه خطاب من مدينة هامبورج الألمانية يقول فيه إنه استقر في هذه المدينة ، وإنه يعمل في أحد المطاعم بالنهار ، ويدرس الألمانية في الليل . . . كان الخطاب مليئاً بالأمل ، مشرق الأسلوب متفائلاً . . . قال نبيل إنه قرر الالتحاق بأحد المعاهد الاقتصادية

في ألمانيا ، وإن فرص العمل أمام الشباب في أوروبا متاحة . . . ثم كتب لها عنوانه وطلب منها أن تكتب إليه ، وأن تعود إلى الثقة فيه مرة أخرى !

وكتبت له سامية ، وانتظمت مراسلاتها لشهرين أو ثلاثة ثم انقطعت خطاباته مرة أخرى ، ولم يعد يرد على رسائلها التي كانت تحمل له ، مع أنبائها ، قلقها عليه . . . مضى عام وبعض عام وتخرجت سامية وكان نبيل يكتب لها أحياناً معتذراً عن قلة خطاباته بانشغاله في المعهد الذي التحق به ، كانت خطاباته الآن تأتيها - إذا ما جاءت - خالية من الروح ، مجرد سطور لا تعني شيئاً . . . حتى إذا كانت أوائل عام ١٩٦٧ ، وصلها منه خطاب أحيا الأمل في صدرها من جديد . . . في هذا الخطاب ، قال نبيل إنه يعمل الآن في السياحة ، ويتقاضى راتباً مجزياً ، وعمولة لا بأس بها !

« الجوابات دي لسه عندك ؟! » .

هكذا سألها عادل مكي وقد دق جرس الإنذار في رأسه . . . كان سؤاله مفاجئاً فحملقت فيه لثوانٍ قالت بعدها :

« جوابات نبيل كلها عندي ! » .

« ممكن أشوفها ؟! » .

بدا الحرج على سامية ، بل بدا وكأنها غضبت ، فاستطرد عادل :

« أنا عارف إنها جوابات خاصة ، وخاصة جداً كمان . . . إنما . . . » .

« إنما إيه يا عادل بيه ؟! » .

« ساعات الجوابات دي بتبقى فيها حاجات ما يعرفهاش الإنسان العادي أو ما ياخدش باله منها ، لكن بالنسبة لنا بتعني حاجات كتير !! » .

وأطرقت سامية دون رد ، أطرقت وهي لا تعلم أن هذه الخطابات بالتحديد ، هي أكثر ما يحتاج إليه عادل مكي ، كي تكتمل الحلقة أمام عينيه . . . وأن تلك الفترة التي كانت تتحدث عنها سامية ، هي أخطر الفترات على الإطلاق ، في قصة نبيل سالم ، الذي تحول إلى عميل لمخابرات العدو ، يصيب الوطن في كل يوم بما لو عرفته سامية ، لابيضّ شعرها من فرط الهول !!

الفصل السابع

الطريق الشائك ؟

قضى نبيل سالم ليلة من أغرب ليالي عمره بعد لقائه بأبي سليم في هذا المقصف الفاخر ، فبالرغم من سعادته البالغة لهذا الترحيب الذي لقيه من الرجل الكبير ، وبالرغم من غبطته لما انتاب فريدريك بيكر نحوه من إحترام مفاجىء ، فإن قلقه كان عظيماً !

فمن هو أبو سليم الذي يعتبر بالنسبة لشاب مثل فريدريك بيكر رجلاً كبيراً ؟!

وإذا كان أبو سليم قد التقى به من قبل ، وإذا كان فريدريك يعمل لحسابه ، فلماذا لم يقابله في اليوم التالي مباشرة ، ولماذا لم يتعامل معه دون وساطة من فريدريك ؟!

كانت الأسئلة في ذهنه حقاً ، لكنه راح يعلل الأمر لنفسه بأن لهؤلاء الناس - بالقطع - أساليبهم التي لا يعرفها . . . وعندما ألحت عليه الأفكار طاردها بعنف ، فلقد كان كل ما يعنيه الآن أن يحتفظ بمسكن كهذا الذي يعيش فيه الآن ، وملابس كالتي يرتديها ، وأن يجد ما يسد به رمقه . . . بل إنه ، مع مرور الساعات ، راح يبرر لنفسه قبوله لمثل هذا العمل ، ويبحث عن أسباب تقنعه بالقبول في مواجهة وخز ضمير كان في غنى عنه !!

ودّعه فريدريك دون موعد فلم يسأله متى سيلقاه ، بدا له الأمر ، وبشكل غامض ، وكأن كلاً منهما ينفصل عن الآخر ، أو كأن كلاً منهما يودع الآخر . . عاد إلى الشقة ولم يكن أمامه سوى العودة إليها بعد أن فقد بغيابه لثلاثة أيام

مكانه في الغرفة التي كان يسكنها مع أربعة آخرين . والتي لا بد أن ضائعاً غيره قد احتل مكانه فيها . . . وما أن دلف إلى الشقة حتى أطبقت عليه الوحدة ، فعادت الاسئلة إلى الإلحاح :

« لمن هذه الشقة ؟! . . هل هي لفريدريك أم أنها للرجل الكبير ؟! » .

طرد السؤال ثم طارده فكان يكفيه الآن أنه ينام على فراش وثير ويدخل حماماً نظيفاً ، راح يقلب الأمر في ذهنه مرة أخرى فلم يصل إلى بر يرتاح إليه . . . قبل أن يأوي إلى فراشه كان قد اتخذ قراراً نهائياً بأن يسير في الشوط حتى نهايته . . . بدت له العودة إلى مصر كنوع من المستحيل ، تذكر خطاب سامية الأخير فانتابته غصة أرقته لساعة وبعض الساعة ، أحس وكأنه بقراره هذا قد ألقى بنفسه إلى نهر تندفع مياهه في عنف إلى حيث لا يدري . . . ثم . . . ثم هدأ تفكيره عندما وجد المبرر :

فلِمَ لا يجاري أبا سليم فيما يريد منه حتى يُكَوِّن لنفسه مبلغاً من المال يعود به إلى مصر مرفوع الرأس موفور الكرامة . . . مبلغاً يكفيه لعام وبعض عام حتى يعود إلى الكلية ويحصل على البكالوريوس فلا يحتاج إلى معونة أبيه . . . ولسوف يظل هذا العمل الذي سيمارسه مع أبي سليم سراً لن يعرفه أحد ولن يبوح به لمخلوق حتى لسامية . . . وإذا كان فريدريك ينفق بهذا البذخ ، ويحيا هذه الحياة فهو لن يعيش كما يعيش فريدريك . . . بل سيقتصد ، ويضع المارك فوق المارك حتى يمتلك بضعة ألوف منها تكفيه كي يؤسس شركة أو مشروعاً يدر عليه أضعاف ما كان يكسب من وظيفة تحدد مستقبله وتكبل حركته . . . وهو . . . هو عندما قرر البقاء في أوروبا وعدم العودة إلى مصر ، لم يكن في حاجة إلّا إلى فرصة ـ مجرد فرصة واحدة ـ يثبت بها كفاءته . . . وهاهي الفرصة تأتيه ، فهل يركلها ؟!

ويبدو أنه استراح للفكرة . فنام !!

لكن نومه كان متقطعاً . . مزقته الحيرة والأحلام ، لكن الليل انقضى على أية حال . . . في الصباح أدرك أن عليه ألّا يغادر البيت قبل أن يتحدث إليه أبو

سليم تليفونياً . هكذا طلب منه الرجل في المقصف وكان طلبه واضحاً لا لبس فيه . . . مرة أخرى يكتشف غفلته فإن أبا سليم لم يحدد موعداً للحديث في التليفون . . . ثم اكتشف ـ وكانت الساعة تقترب من العاشرة صباحاً ـ أن البيت خال من الطعام . . . عضه الجوع فراح يبحث عن شيء يتبلغ به ، وكان يعلم أن لا طعام هناك . . . طوال الأيام الماضية كان فريدريك قد تكفل بكل شيء فلم يشعر بحاجة إلى طعام أو شراب ، فكر في الخروج لشراء بعض الطعام ثم عدل خوفاً . . . قال فريدريك وهو يحذره : إن الرجل الكبير قد يأمر بإرساله في رحلة إلى العالم الآخر !! . . . فكيف يكون موقفه إذا خرج ودق جرس التليفون ولم يجد أبو سليم من يرد عليه؟! راحت الساعات تمضي، وانتصف النهار وازداد إحساسه بالجوع فقرر المغامر والخروج لكنه ، قبل أن يغادر الشقة ، اكتشف أنه لا يملك مالاً . . . وقف في منتصف المكان حائراً . . . راح يتلفت هنا وهناك فاصطدمت عيناه بالجدران ثم ارتدت نظراته إلى داخله . . . فهو . . . هو الآن يستطيع مغادرة المسكن حقاً . . . لكنه لا يستطيع !!! . . . هو حر الحركة فعلاً ، لكنه مقيد برنين جرس تليفون . . . أحس في لحظة أنه يخطو وهو جامد في مكانه إلى عالم مروع ، اضطرب قليلاً ثم هز كتفيه في لامبالاة ، واتخذ قراره ، ربما للمرة المائة ، بأن يخوض التجربة حتى النهاية !!

وها هو النهار ينقضي والشمس تغرب ، وبطنه خاو والجوع يعصف بمعدته ، والقلق يستبد به . . . ولكن : أين المفر ؟

لم يفكر نبيل سالم ، بل لم يخطر بباله في لحظة . . أن كل ما كان يحدث له كان مخططاً بعناية ، وأن أي تصرف من تصرفاته كان يقاس بدقة شديدة ، وأن هناك من كانوا يرصدون حركاته ويتربصون به . كي ينقلوا با قة بالغة كل حركة وكل تصرف . إلى من يهمهم أمره في ذلك الوقت . . . أبداً لم يفكر نبيل سالم ، ولم يخطر هذا على باله في لحظة !!

... ...

... ...

في العاشرة مساء وصل إلى حالة من اليأس والجوع والضيق والإحباط ألقت

به فوق أحد المقاعد بلا حراك . وعندما دق الجرس انتفض وجرى نحو التليفون ورفع السماعة في لهفة لكنه اكتشف أنه كان جرس الباب . . . توقف لاهث الأنفاس متردداً . . . كان يشعر وكأنه في غيبوبه وأن كل ما حوله ليس سوى حلم ، دق الجرس مرة أخرى فاندفع نحو الباب وفتحه كي يجد أمامه مشهداً لا يصدق . . . كان أبو سليم يقف وقد اختفى وجهه خلف حقيبتين مليئتين بالطعام والشراب امتلأت نفسه بالامتنان واندفع نحو الرجل الذي كان يهتف به في مرح :

« افتح يا أخي واحمل عني هادي البلوى ! » .

حمل عنه الحقيبتين معاتباً :

« معقول التأخير ده ، يا أبو سليم ؟! » .

قال أبو سليم وهو يغلق الباب :

« أنا ما قلت لك إني جاي لك اليوم !! » .

« لأ . . . إنت قلت إنك حاتتكلم في التليفون ! » .

هتف الرجل دهشاً :

« أنا قلت هيك ؟! . . . والله يا أخي نسيت ! » .

« البيت مافيهش ولا لقمة ! » .

« وليش ما خرجت تشتري طعام » .

« لأني خفت أخرج تتكلم في التليفون ماتلقانيش ! » .

« عفارم عليك نبيل ! » .

« ولأن مفيش معايا ولا مارك ! » .

« وليش ما طلبت مصاري ؟! » .

دلف نبيل إلى المطبخ كي يجهز الطعام هاتفاً :

« مش جعان ؟! » .

« أنا ماني جعان فقط . . . أنا حاموت من العطش ! » .

وهكذا راح نبيل ، في حماس شديد يعد الطعام والشراب وكان رأسه يعمل

بسرعة ، والأسئلة تزدحم فيه ، والأمل يضيء الطريق أمامه !

* * *

بعد سنوات . . . وعندما قص نبيل سالم قصة تلك الليلة ، قال إن أبا سليم تحدث إليه ، في كل شيء وأي شيء ، وإنهما أكلا وشربا ، وكان طبيعياً أن تأتي سيرة جمال عبد الناصر وإسرائيل . . . وإن رأى أبو سليم أن عبد الناصر زعيم عظيم ورجل تاريخي لكنه تخصص في اكتساب عداء الآخرين . . . وإن الدول العربية ـ بفضل عبد الناصر ـ أصبحت عالمياً في موقف لا تحسد عليه رغم معارضتها له . . . وإنهم في الغرب يرون أن هذا الرجل يقود بلاده نحو خراب أكيد ، وإن عداءه لإسرائيل أكسبها عطف العالم أجمع .

قال نبيل إنه لم يكن مهتماً بالسياسة وبالتالي فلم يكن يعنيه ما قاله أبو سليم . . . قال إنه كان يتعجل الحديث في العمل لكن الرجل بدا وكأنه نسي كل شيء عن هذا الأمر وراح يخوض في أمور شتى ، ثم أخذ يسأله عن رأيه في الاشتراكية وعبد الناصر فاضطر نبيل ـ هكذا أكد ـ إلى مجاراته حتى يكسب رضاه ، جاراه فيما كان يقول حتى تنتهي تلك « الدردشة » ويدخل في صميم الموضوع . . . لكن أبا سليم كان قد انطلق وقد شرب كثيراً ، ثم راح يمطره بالأسئلة ، سؤالاً وراء سؤال . . . سأله عن حياته في مصر . عن أمه وأبيه ، وأقاربه وأصدقائه ومعارفه وجيرانه ، ووظائفهم ، ومراكزهم . وكان طبيعياً أن يعرج الحديث على سامية فهمي وأن يتوقف عندها طويلاً ، كانت سامية الآن في السنة النهائية بكلية الآداب قسم صحافة . وكانت تنشر التحقيقات والموضوعات ويكتب إسمها بالبنط العريض . . . حكى نبيل لأبي سليم كيف التقى بها ، وكيف تحابا وكيف ارتبطا ارتباطاً شديداً ، فسأله أبو سليم فجأة :

« لكن إيه اللي خلاك تسيب مصر ، يا نبيل ؟! » .

قال سالم فيما بعد ، إنه في محاولته لإرضاء الرجل ـ أيضاً !! ـ قال إنه هجر مصر لأنها بلد شهادات ، ولأن نظام عبد الناصر لا يعطي الفرصة للشباب أمثاله في استغلال إمكاناتهم . . . تحدث عن مكتب التنسيق الذي ألقى به في كلية التجارة وهو لا يحب التجارة . ثم تحدث عن التعيين والمرتبات

الضئيلة . . . ثم . . . ثم قال نبيل . قال كل شيء وهو لا يدري أن الرجل كان يعتصره اعتصاراً ، وأن أسئلته كانت ذات منهج دفعه دفعاً إلى البوح حتى بأدق تفاصيل حياته وعلاقته بأمه وأبيه . . . ثم عاد الحديث مرة أخرى إلى سامية ، فرفع الرجل كأسه كي يشرب في صحتها ثم سأله :

« بتحبها ؟! » .

هز نبيل كتفيه في لامبالاة مغمغماً :

« يعني ! » .

« وهي بتحبك ؟! » .

هتف نبيل :

« لدرجة إني مش عارف أعمل قدام حبها ده حاجة ! » .

وعاتبه أبو سليم على هذا الرد . . . قال إن سامية فهمي ، وقد أخلصت له حتى الآن ، وبالرغم من هجرانه لها ونزوحه إلى أوروبا ، لابد ـ على الأقل ـ أن يظل حاملاً لها هذا الجميل ، وإن علاقته بها لابد أن تستمر وتظل قائمة .

قال : إن العلاقات العاطفية في أوروبا شيء وفي مصر شيء آخر . . . ومهما كانت له علاقات بفتيات من ألمانيا ، فإن علاقته بسامية ـ أخلاقياً ـ لابد أن تتوطد وتتدعم .

« طب إزاي ؟! » .

هكذا سأل نبيل . فرد أبو سليم :

« بالخطابات يا أخي . . . بالهدايا ! » .

« هدايا إيه يابو سليم . هو أنا لاقي آكل ؟! » .

« خلاص . . . بكير تكتب لها خطاب وترسل لها هدية قيمة ! » .

رغم أن أبا سليم كان يمس الآن ، وبعنف ، ذلك الوتر الشديد الحساسية في صدر نبيل سالم ، مما جعل الفتى يبدو متفضاً متلهفاً ، فإنه هتف أخيراً متشبثاً بذلك الأمل الذي كان ، كلما شعر باقترابه منه ، أحس أنه يبعد عنه :

« مش مهم الجوابات ولا الهدايا . . . المهم الشغل . إحنا حنعمل إيه في الشغل ؟! » .

وكأن أبا سليم لم يسمع . سأله .

« إنت مش بتقول إنها صحفية ؟! » .

« ولسه باعته لي جواب من كام يوم ومعاه آخر تحقيق نشرته في المجلة ! » .

« خلاص . . . هات الخطاب هادا وأنا أقول لك تبعت لها إيش ! » .

« جواب إيه بس . . . وأنا قطعته ورميته ! » .

قال نبيل إنه دهش في تلك اللحظة لتلك النظرة النارية التي انطلقت من عيني أبي سليم ، نظرة ذكرته بذلك التحذير الذي ألقاه فريدريك بيكر في وجهه قبل أن يذهبا إلى لقائه . حاول نبيل التملص من الموقف فصاح محتجاً : « لكن كل ده ماله ومال اللي إحنا فيه ؟! » .

صاح أبو سليم في لهجة مصرية خالصة :

« إلا ماله . . . إنت نسيت إننا بنشتغل في سلعة عالمية ! » .

« ودق قلب نبيل بعنف . . . فهل معنى هذا إنه قد يحمل مخدرات إلى مصر ؟! » .

راح يحملق في الرجل وقد انهارت كل أحلامه فجأة ، خشي الاعتراض حتى لا يفقد فرصة طالما انتظرها ، عندما طال الصمت سأله أبو سليم وكانت نبرة صوته الآن تختلف تماماً عن تلك النبرة التي تعود نبيل عليها فكأنه تحول إلى إنسان آخر :

« إنت عارف طبعاً إحنا بنشتغل في إيه ؟! » .

« فريدريك قال لي ! » .

« وإنت إيه رأيك ؟! » .

« أنا تحت أمرك يا أبو سليم هنا . . . بس . . . مصر . . . . . . » .

هتف أبو سليم مقاطعاً :

« مصر ؟ . . . مين إللي جاب سيرة مصر ؟! » .

اجتاحت الراحة صدر نبيل فصاح :

« إنت اللي لسه قايل ! » .

« إسمع يا نبيل يا خويا . . . إحنا النهار ده أكلنا عيش وملح سوا ، وفتحنا قلبنا لبعض . . . وأنا مش مجنون أبعتك مصر عند راجل زي جمال عبد الناصر علشان يقبض عليك ويوديك ورا الشمس ! » .

« وهو أنا لو اتقبض علي هنا مش راح أروح ورا الشمس ؟! » .

« لأ !! » .

« إزاي بقى ؟! » .

« هنا دولة ديمقراطية ومتحضرة ، والتفاهم معاهم ممكن ! » .

« ثم إني كمان ما اعرفش أدي حقن ! » .

هكذا قال نبيل في تذمر ، فهتف أبو سليم دهشاً :

« حقن ؟! . . . حقن إيه دي ؟! » .

« ده اللي أنا فهمته من فريدريك ! » .

« بس فريدريك حاجة ، وإحنا حاجة ثانية خالص ! » .

كان أبو سليم قد انتقل الآن ، مع نبرته الجديدة إلى الحديث باللهجة المصرية تماماً ، سأله نبيل :

« إحنا ؟! » .

« اللي زيي واللي زيك مش لازم يشتغلوا الشغل ده . . . إحنا مهما كان الأمر ، أغراب !! » .

« مش فاهم » .

وهكذا راح أبو سليم يشرح له الأمر .

إن جمال عبد الناصر استطاع أن يجعل العرب مكروهين في أوروبا . وأن سياسته بالذات لم تجر الخراب والعداء على مصر فقط ، بل جعلت من وجود مواطنين عرب في بلد مثل ألمانيا تتعاطف مع إسرائيل وتقدم لها المساعدات

والتعويضات وتغدق عليها السلاح والطعام ، أمراً غير مرغوب فيه ، بل ومحاطاً بشكوك لا نهاية لها . . . لذلك فمثل هذه الأعمال القذرة ـ قالها الرجل بالإنجليزية ـ التي يمارسها شاب مثل فريدريك ، يجب ألَّا يقوم بها إلا ألماني مثله ! لكن . . .

« لكن إحنا لنا شغل تاني يا نبيل ! » .

كان نبيل الآن ممتناً أشد ما يكون الإمتنان للرجل الذي كان يحميه ، فسأله في حرارة :

« شغل زي إيه مثلاً ؟! » .

« عاوز تفهم ؟! » .

« طبعاً !! » .

« أول حاجة بالنسبة لك ـ مثلاً ـ إنك لازم تلاقي وظيفة محترمة ! » .

فغر نبيل فمه دهشة . دق قلبه بالسعادة والعرفان معاً .

« ما لك يا نبيل ؟! » .

« عاوز الحق والَّا ابن عمه ؟! » .

« الحق طبعاً ! » .

« مش فاهم !! » .

وهكذا راح أبو سليم يضع أمام الفتى نقاطه الغامضة ، فوق حروفه الأشد غموضاً . . . قال :

« أولاً . . . اللي زيي واللي زيك ، لازم وجودهم هنا يبقى شرعي ! » .

« مضبوط ! » .

« علشان كده لازم ندور لك على شغلانة كويسة في شركة من الشركات المحترمة ! » .

« ودي حانلاقيها إزاي ؟! » .

« وبالشكل ده نقدر نطلع لك تصريح عمل ، ويبقى وجودك قانوني وما حدش له عندك حاجة ! » .

أحس نبيل سالم إنه في حلم لا علاقة له بالواقع ، كان ما يقوله أبو سليم بالتحديد هو ما يتمناه وما يرجوه وما يسعى إليه منذ وطئت قدماه أرض إيطاليا منذ عام وبعض عام ، وحتى استقر به المقام في هذه المدينة الألمانية . . . قال في عرفان وامتنان :

« ربنا يخليك يا بو سليم ! » .

« بعد ما تستقر في وظيفتك ، وتكوِّن علاقات محترمة مع ناس محترمين . . . نبدأ ندور على شغلنا . . . وحانلاقي مليون سكة » .

« تفتكر السكك دي مأمونة ؟! » .

« مية في المية ! » .

« طب أفرض الطوبة جت في المعطوبة ؟! » .

« قصدك البوليس يمسكك ؟! » .

« أيوه » .

« يبقى لازم موقفك يكون صاغ سليم ! » .

« للدرجة دي ؟! » .

« طبعاً . . . ماهو احنا لازم نعيش في وسط الناس دي في أمان . . . وكفاية اللي عامله جمال عبد الناصر فينا . . . كفاية موقفنا اللي زي الزفت في الدنيا كلها ! » .

في حماس وهو ينتفض بالسعادة قال نبيل :

« أبو سليم . . . أنا تحت أمرك ! » .

* * *

قال لي عادل مكي إنه في بعض الأحيان يشعر بالألم لأن الناس في بلادنا لا يفهمون طبيعة عمل ضابط المخابرات . . . الناس لا يفهمون أن هذا العمل في حقيقته ليس سوى حماية لهم ، لبيوتهم وأعراضهم ، أولادهم ومصادر رزقهم . . . هو عندما طلب من سامية فهمي الإطلاع على تلك الخطابات التي وصلتها من نبيل سالم أثناء وجوده في ألمانيا ، كان يعلم

علم اليقين أن تلك الخطابات تمثل الخطوة الأولى في تجنيد نبيل سالم للعمل ، وبوضوح ، لحساب المخابرات الإسرائيلية . . . وبالنسبة إليه ، في ذلك الوقت الذي كانت سامية فهمي تجلس معه للمرة الثانية ، كان من أشد الأمور أهمية أن يعرف إن كان الأمر قد تم بعلم نبيل ، أم أنه استدرج دون أن يشعر حتى وقع في أسر أبي سليم . . . أو الرجل الكبير كما قال عنه موزع المخدرات الألماني فريدريك بيكر .

وهو ، وعلى الجانب الآخر ، وبالرغم من أهمية هذا الموضوع ، وخطورته في نفس الوقت . . . لم يكن يستطيع أن يصارح سامية فهمي بحقيقة نبيل سالم ، لأنه لو فعل ، فلربما أوقعتها هذه الحقيقة في الحرج أو دفعت بها إلى التمرد ، أو منعتها من البوح بكل ما عندها من معلومات . . . كان من أشد الأمور أهمية ، أن تصل سامية إلى الحقيقة بنفسها !

قال لي إن سامية فهمي عندما طلب منها أن تطلعه على تلك الخطابات ، أطرقت دون رد . . . ولقد أدرك مدى الحرج الذي أوقعها فيه . . . لأنها شعرت ـ بالقطع ـ أن شيئاً خاصاً جداً ، سوف يطلع عليه الغير . . .

كان عادل يعرف هذا تماماً . . . وكان من الممكن أن يرجىء طلب الخطابات قليلاً . . . لكنه ـ وهنا المأزق ـ كان مشفقاً عليها من تلك الصدمة التي سوف تتلقاها يوم تواجه الحقيقة ، سواء بنفسها ، أو عندما يخبرها هو لو أنه اضطر إلى ذلك . . . لكنه عندما حسب الحسبة ـ هذا تعبيره بالضبط ـ وجد أنه من الأفضل لسامية أن تتلقى الحقيقة على جرعات ، حتى تتهيأ نفسها تدريجياً لاستيعاب أمر هو بالنسبة إليها رهيب وعنيف .

ولم يكن الأمر مقصوراً ، من وجهة نظره على الناحية الأمنية أو السياسية فقط . . . فلقد كانت تلك هي الفترة التي تعرف فيها نبيل سالم على تلك الفتاة الخطرة « شيرلي هايمان » أو « لويز جولدمان » ـ وهكذا ، أصبح حديثه مع سامية كالسير فوق الماء . . . ولذلك ، وعندما طلب منها ذلك الطلب ، وعندما صمتت دون رد . . . لزم الصمت هو الآخر لثوان قال بعدها :

« على العمـوم ، إذا ماكـانش عندك مـانع ، حـايبقى مهم جداً إننـا نقـرأ الجوابات دي سوا !! » .

همت بالرد وكان يعرف إنه يضغط عليها فأطلق ضحكة هائلة وهو يردف :

« إنتِ ما جعتيش ؟! » .

نظرت في ساعة يدها وقد سرها أنه غير مجرى الحديث ، كـانت الساعـة تشير إلى الثانية والنصف تذكرت حديثه بالأمس عن عدم تناولـه طعام الإفـطار فأدركت أنه جائع ، سألته وعلى شفتيها ابتسامة باهتة :

« إنت حاتغديني النهار ده كمان ؟! » .

تلقف سؤالها كي يدق بالإجابة على وترها الحساس :

« مش أنا اللي حاغديكي يا سامية . . . مصر هي اللي بتدفع ! » .

وكانت جملته موحية ، وكانت بالقطع مؤثرة ، فلقد برقت عيناها ، وشحب وجهها ، فهزت رأسها إيجاباً ، ولم تفه بحرف !

* * *

الفصل الثامن

السيطرة !

الذي لا شك فيه أن عادل مكي كان يستطيع أن يختصر الطريق مع سامية فهمي كثيراً . . . كان قادراً على الإيحاء ، كما كان قادراً على الضغط خاصة في مثل تلك الظروف العصبية التي كان يعيشها جهاز المخابرات المصري بعد نكسة ١٩٦٧ ، وذلك الضغط الهائل الذي تعرض له الرجال في الداخل والخارج . . . لكنه آثر أن يسلك معها طريق الحوار لإحساسه الفائق ، بأن هذه الفتاة التي جاءت إليه طائعة مختارة ، لم تكن في حاجة إلى إيحاء أو ضغط بقدر ما كانت في حاجة إلى فهم . . .

كانت سامية فهمي تجلس الآن أمامه ـ وقد جاء طعام الغداء ـ تمضغ اللقيمات بلا إحساس وكأنها تلوك في فمها قطعة من اللبان . . . كان يعلم أنها تتشبث بأمل واهٍ ومستحيل . . . ورغم ذلك فلقد راحت ترفض ـ في عناد بدا غريباً ـ أن تعترف لنفسها بأن نبيل سالم متورط فيما كانت تفكر فيه . . . لكنها في نفس الوقت ، وبنفس القدر من القوة ، كانت تكاد توقن أنه بالفعل قد تورط فيما كانت تخشاه !!

بدت له مثل إناء هش قابل للكسر في أية لحظة . . .ولم يكن عادل على استعداد لأن يقوم بهذه المهمة مهما كلفه الأمر .

عندما وضع الطعام بينهما راحا يتناولانه في صمت ، كان ثمة إحساس كثيف يجثم في هواء الغرفة . . . مضت بهما الدقائق صامتة ثقيلة بطيئة قبل أن ترفع إليه رأسها متسائلة :

« أنا مش قادرة أفهم الجوابات دي حاتفيدك في إيه » .

توقف عن الطعام ، سدد إليها نظرة عاتبة ، تمتم :

« في حاجات كتير ! » .

« زي إيه ؟! » .

ترك الطعام تماماً وقرر أن يخوض المعركة معها :

« مش فيه احتمال إن الشكوك اللي عندك تكون صحيحة ؟! » .

« والشكوك اللي عندي مش في نبيل ! » .

« بس نبيل هو اللي وصلك للناس دي ! » .

« هو ذنبه إيه ؟! » .

تذرع بالصبر مائلاً نحوها :

« يمكن مالوش ذنب صحيح ، بس علاقتهم بيه لازم يبقى لها أسبابها ! » .

« الجواب ده بعتهولي من ألمانيا ، والناس دول في نابولي ، يعني في إيطاليا ! » .

بدت سامية فهمي وكأنها تحارب آخر معاركها بضراوة وعنف ... مال نحوها وقد استفزه تشبثها بموقفها :

« إنتِ مش قلتي يا سامية إنه كان بيشتغل في شركة سياحية في هامبورج ؟! » .

« أيوه ! » .

« طب إيه اللي وداه إيطاليا ! » .

« لقى شغل أحسن » .

« ده ممكن يكون سبب ... بس ممكن تكون هناك أسباب تانية ؟! » .

« أسباب زي إيه ؟! » .

« هو ده اللي الجوابات ممكن تقول لنا عليه ! » .

أحست سامية أنها حوصرت فصمتت ، كانت هي تتحدث عن خطاب واحد وكان هو يتحدث عن كل الخطابات ، غمغمت وهي تتشاغل بالعودة إلى الطعام من جديد :

« أنا عارفة إني مزعجة جداً ! » .

ضحك عادل مكي وهو يشعل سيجارة :

« مش قوي » .

نظرت إليه ثم انتقلت عيناها إلى السيجارة بين أصابعه متسائلة :

« إنت بطلت أكل واللا إيه » .

اعتدل في جلسته الآن أمامها ، وضع نظراته داخل عينيها ، أراد لها أن تعي وتفهم كل كلمة سوف يقولها فجاءت كلماته محددة واضحة المعالم :

« لأني عاوز أقول لك يا سامية إن شغلتنا دي صعبة حبتين ، وإن التفاصيل الصغيرة اللي الناس مش ممكن تأخذ بالها منها ، أو ماتديهاش أي اهتمام ، أو تشوف إن ملهاش قيمة ... ممكن تكون مهمة جداً ... ويمكن خطيرة جداً ! » .

هتفت مستسلمة :

« خلاص ... حاجيب لك الجوابات كلها ! » .

قالت هذا وهي تبتسم ، ولم يملك عادل مكي نفسه من الإبتسام هو الآخر ، فهمست معتذرة :

« ممكن تأكل بقى ؟! » .

رماها بنظرة صارخة بالعتاب ، وأطفأ سيجارته ، وعاد إلى الطعام من جديد !

* * *

كانت مشكلة عادل مكي في ذلك الوقت ، إنه يريد أن يعرف على وجه التحديد ، ما الذي حدث لنبيل سالم في ألمانيا حتى اختفى منها فجأة كي يظهر ، وبلا مقدمات ، في مدينة نابولي الإيطالية !

تجمعت لديه بعض المعلومات ، ولكنها كانت معلومات ناقصة ... حقاً كان التحليل قادراً على الوصول به إلى احتمالات تكاد تطابق الحقيقة ... لكن معرفة الحقيقة شيء آخر ... واقع صلد لا شك فيه ... واقع يستطيع منه أن

ينطلق واثق الخطى كي يكشف هذه الشبكة التي بدت في الأيام الأخيرة ، وكأنها أخطبوط يتغلغل في أرض الوطن الجريح . . . كان هناك مهندسون وأطباء وصحفيون وموظفون وطلبة وتجار وسماسرة كلهم . . . كلهم التقوا بنبيل سالم الذي كان يسعى بشتى الطرق إلى تسليمهم لرجال المخابرات الإسرائيلية . . . وكلما مضت الأيام ، ازداد اقتناعه بخطورة هذا الشاب الذي كان آداؤه يتطور بسرعة مخيفة . . . والذي استخدم كل ذكائه وخفة ظله وقدرته على اكتساب ثقة الناس ، في الإيقاع بأبناء وطنه ، أو في التجسس على هذا الوطن لمصلحة العدو !

وعندما كان عادل مكي في بعض الليالي التي تؤرقه فيها مسؤولياته ، يحاول أن يربط بين ما كان يحدث في تلك الأيام من عام ١٩٦٧ ، وبين ما حدث بعد ذلك ، دائماً ما كان الخيط يمتد في يده كي يربط كل شيء بكل شيء . . .

كان الإسرائيليون في تلك السنوات شديدي النشاط في ألمانيا وإيطاليا بالذات وانتشرت بيوت الملذات في طول أوروبا وعرضها تستدرج الشباب العربي عن طريق الجنس والمخدر واللهو إلى مهاو بلا قرار . . . وكم من جواسيس وقعوا . وكم من شبكات سقطت . . . وكم من شباب أبى أن يخون فجاء سعياً لإنقاذ الوطن !

وفيما بعد . . . وعندما تجمعت . كل الخطوط في يده ، عرف كل شيء .

. . .   .

. . .   .

عرف أن أبا سليم غادر شقة فريدريك بيكر في تلك الليلة تاركاً نبيل يسبح في بحر من الأحلام . . . نفحه قبل أن يمضي مبلغاً لا بأس به من المال ، طلب منه أن يوقع إيصالاً بالمبلغ فبدت الدهشة على وجه نبيل وإذا به يصيح فيه بمرح :

« الشغل شغل يا بلبل ! » .

ولم يكن أمام نبيل إلاّ أن يوقع فوقع ، طلب منه أبو سليم أن يسعى منذ الغد للبحث عن مسكن ملائم ووظيفة محترمة . . . عندما همَّ نبيل بالسؤال قال له الرجل في وضوح لا لبس فيه :

« شوف يا نبيل ، إذا كنت عاوزنا نشتغل سوا ، وإذا كنت عاوز تنجح ، يبقى لازم تسمع الكلام !! » .

« من غير مناقشة يا بو سليم ؟! » .

« من غير مناقشة !! » .

ساد الصمت قليلاً ثم أردف الرجل :

« إنت مش تهمك سلامتك ؟! » .

« طبعاً !! » .

« وأنا كمان تهمني سلامتك ! » .

« طب أفهم ؟! » .

ابتسم أبو سليم ابتسامة خفيفة وهو يقول :

« المرة دي حافهمك ، لكن بعد كده لازم تفهم لوحدك ! » .

« وإذا ما فهمتش ؟! » .

« يبقى تنفذ اللي باقول لك عليه من غير سؤال ! » .

« من غير سؤال » .

« واللي أوله شرط ، آخره نور !! » .

هكذا قال أبو سليم ، ثم اعتدل في جلسته كي يشرح له الأمر برمته !

. . . . . إن بقاءه في شقة مثل هذه بالقطع ، سوف يلفت الأنظار ويثير التساؤل لأنه في البداية والنهاية عاطل . . . فمن أين يجيء بالمال ؟!

« في دي معاك حق ! » .

هكذا هتف نبيل ، فاستطرد أبو سليم :

« ولأنك عاطل ، يبقى لازم تسكن في أوضه على قدك ! » .

همَّ نبيل بالحديث ، فرفع هذا يده مردفاً :

« أنا مباقولكش روح أسكن في مزبلة زي اللي كنت ساكن فيها ، أنا باطلب منك تسكن في أوضة أحسن ، ولما تكسب ، أسكن في قصر محدش حايشك ، ومحدش يقدر يقول لك تلت الثلاثة كام !! » .

قال نبيل سالم فيما بعد ، إنه في تلك الليلة لفت نظره إتقان الرجل الشديد للهجة العامية المصرية ، واستعماله للأمثلة الدارجة والتعبيرات التي يستعملها المصريون في أحاديثهم ، لكنه على كل حال . . أحس كأن أبو سليم يقوده إلى أحلامه برفق ، فهتف في حماس :

« ماشي كلامك يا بو سليم ! » .

« ولأنك عاطل ، لازم تدور على شغل ! » .

« شغل ؟! . . . أمال إنت . . . » .

« مش المهم إنك تلاقي شغل يا نبيل ، المهم إن الناس تعرف إنك بتدور على شغلانة تأكل منها عيش ، ويشوفوك وإنت بتلف وتدوخ وتدور وتتعب وتروح شركات وتترفض !!

كانت المعاني تتسلل إلى ذهن نبيل فتبهره !

« ولأننا حانشتغل مع بعض ولأن شغلنا خطر مش لازم الناس يشوفونا مع بعض كتير !! » .

« إزاي ؟! » .

« اعتدل أبو سليم في جلسته زافراً !

« سيب إزاي دي لبعدين . . . ونفذ دلوقت اللي باقول لك عليه ! » .

« وامتى عاوزني أسيب الشقة ؟! » .

« بكره !! » .

« همّ نبيل بالسؤال ، فأردف أبو سليم في نبرة حادة :

« بكرة مش بعده يا نبيل ! » .

. . . .

. . . .

لم يكن المبلغ الذي نفحه أبو سليم لنبيل كبيراً ، لكنه كان يفي بالحاجة . . . وليس هناك شك في إن شخصية الرجل قد بهرت هذا الشاب الطموح ، الذي وجد أبواب الثراء تفتح له على مصراعيها ، وفيما بعد ذلك قال نبيل سالم وهو يصف تلك الفترة ، إنه كان يشعر بأنه منوم أو كالمنوم . . . ففي صباح اليوم التالي كان أول ما فعله هو البحث عن غرفة متواضعة في بنسيون أو فندق صغير . ولقد استنفد البحث اليوم بأكمله . . . ظل يلهث طوال اليوم لأنه كان يعلم أن عليه أن يغادر الشقة قبل الغروب وألا يعود إليها مرة أخرى مهما كانت الأسباب . كان عليه أن ينقل منها كل ما يخصه وألّا يترك فيها أي شيء مهما كان تافهاً أو صغيراً . . . ثم أن عليه بعد ذلك أن يحتفظ بالمفتاح إلى أن يلتقي بأبي سليم .

« إمتى ؟! » .

« في الوقت المناسب ! » .

« طب وإنت حاتعرف عنواني إزاي » .

« إنت حتقول لي عليه ! » .

« إزاي يا بو سليم وأنا . . . » .

أطلقت عينا الرجل نظرة كأنها رصاصة اخترقت رأس نبيل فيما بين العينين فلزم الصمت !

« إنت يظهر مش عاوز تتعلم يا نبيل » .

هتف هذا معتذراً :

« أنا مش قصدي ! » .

وأخيراً . قبل الغروب بساعة ، استطاع الشاب أن يجد غرفة في فندق من فنادق الدرجة الثالثة . . . وها هو يغادر الشقة ، ويحتفظ بالمفتاح ، وها هو في غرفته الجديدة في ذلك الفندق المتواضع ، يتذكر ويتساءل ويضرب أخماساً في أسداس دون أن يجد إجابة عن سؤال واحد مما طاف بذهنه !

كان عليه الآن ، ومنذ الصباح التالي ، أن يبحث عن عمل ! فأي عمل هذا الذي سيبحث عنه وهو لا يتقن الألمانية ؟!

فكر ، قبل أن ينام ، أن يلتحق بأحد المعاهد لتعلم اللغة ، وهو يعرف أحدها ، يعرفه ويعرف الطريق إليه . ولكن . . . هل يكفي ما معه من مال ؟

كان ما تبقى لديه ، بعد أن دفع إيجار الغرفة لأسبوعين قادمين ، يكفيه بالكاد لأسبوع أو عشرة أيام إذا ما قتر على نفسه . . . لكنه اتخذ قراراً بأن يزيد من تقتيره على نفسه ، وأن يلتحق بالمعهد ، وأن ينتظم في المساء . ثم . . . ثم كان عليه بعد ذلك أن ينتظر ، لاشيء سوى الانتظار ، حتى يتصل به أبو سليم .

ولقد أدرك نبيل ، خلال الأسبوع التالي ، إستحالة حصوله على وظيفة محترمة . . . أدرك ـ بدهشة بالغة ـ أنه لا يتقن عملاً معيناً . . . وهو الآن ، الآن فقط ، وبعد ما يقرب من عامين منذ أن غادر مصر ، اكتشف نبيل سالم أنه لا يتقن مهنة ، وأنه لم يحاول أن يتعلم شيئاً أو ينتمي إلى فن أو فرع من فروع المعرفة . . . حتى عندما جلس أمام الأستاذ عند التحاقه بالمعهد ، لم تخف عنه نظرة الإستخفاف التي رماه بها الرجل وهو يقول له : إن هناك فرقاً كبيراً بين اللغة الألمانية ، وبين تلك اللغة التي كان يلوكها في فمه ملتقطاً كلمة من هنا وكلمة من هناك . . . وكلما مرت الأيام ، شح المال ، وتسرب القلق إلى نفسه من جديد !!

انقضى الأسبوع وأصبح ما يملكه لا يكفي إلّا لطعام يوم أو يومين . . . عاد ذات ليلة إلى غرفته في الفندق وقد استبد به القلق استبداداً ، كان فشله في الحصول على وظيفة يؤرقه . وإحساسه بأنه لا يتقن مهنة يعذبه . . . أحس كأن غياب أبي سليم عنه يضغط على عنقه ويكتم أنفاسه ، ورغم هذا فلم يكن أمامه من طريق سوى الانتظار . . . الآن كان نبيل قد انقطع عن تلك الغرفة التي كان يعيش فيها ، ولم يعد يرى أحداً أو يلتقي بأحد ، اختفى فريدريك بيكر من حياته وكأنه لم يكن ، انقطعت عنه أخبار سامية ولا بد أن خطاباً قد وصل إلى عنوانه بالغرفة أو المطعم . . . فقد نبيل علاقته بالعالم ، وكان كل ما يربطه بالدنيا ، الآن ، هو أبو سليم .

ومضت تسعة أيام !

وفي اليوم العاشر كان عائداً إلى الفندق يضرب أخماساً في أسداس ، كان قد أفلس تماماً ولم يعد يملك ثمن وجبة عشاء . . . كان الجو بارداً والجوع يعصف به عندما توقفت إلى جواره سيارة . . . ظن في أول الأمر أن توقفها لا علاقة له به ، فمضى في طريقه دون أن يلتفت ، لكن السيارة عادت إلى السير من جديد كي تحاذيه وتتوقف ، وكان لا بد له أن يلتفت فالتفت . . . وهناك ، خلف عجلة القيادة ، كان أبو سليم يجلس داخل السيارة ، وعلى شفتيه ابتسامة واسعة !

... ...

... ...

فيما بعد قال نبيل سالم ، إنه لم يكره مخلوقاً في حياته ، قدر كراهيته لأبي سليم في تلك الليلة . . . لكنه لم يكن يملك سوى أن يدلف إلى السيارة . دون كلمة منه أو دعوة من أبي سليم . ركب نبيل إلى جواره فانطلقت السيارة . . . ران الصمت لدقائق طالت بعض الشيء ، وكانت السيارة تأخذ طريقها إلى إحدى ضواحي المدينة عندما سأله أبو سليم :

« إتعشيت ؟! » .

وانفجر نبيل . . .

انفجر دون أن يعي أو يشعر أو حتى يقصد ، صرخ بكل ما في صدره من يأس وضيق :

« تقدر تقول لي إيه الحكاية دي ؟! » .

لم يرد أبو سليم ، بل حتى لم يلتفت إليه ، ولم تختف ابتسامته ، فعاد نبيل إلى الصراخ :

« تكونش فاكرني عبد عندك ! » .

انحرفت السيارة حتى حاذت الرصيف ، ثم توقفت .

اضطرب نبيل اضطراباً وقد أدرك سر توقفها . . . كان المكان خالياً من المارة وليس هناك محلات أو أضواء .

« وقفت ليه » .

« إتفضل ؟! » .

« إحنا حانتزل هنا ؟! » .

هكذا سأل نبيل فأنكر المذلة في صوته !

« أنت اللي حاتنزل مش أنا !! » .

في عصبية فتح نبيل باب السيارة هاتفاً في تخاذل :

« أيوه حانزل . . . بس أعرف إيه الأسباب !! » .

كان يتوسل . وكان توسله رخيصاً !

« مش إنت اللي مش عاجبك ؟! » .

« إنت مش عارف إني كنت مستنيك طول الأيام دي ؟! » .

« عارف ! » .

« تقوم تسيبني كده ؟! » .

« أنا قلت إني حاشوفك في الوقت المناسب ! » .

« وهو الوقت المناسب ده ، مايجيش أبداً إلّا لما أجوع ؟! » .

« وهو إنت جعان ؟ » .

قالها أبو سليم في برودة الصقيع خارج السيارة .

« وأما يبقى ماعييش مارك أتعشى بيه ! » .

« خلاص . . . نتعشى سوا ! » .

وأغلق نبيل باب السيارة ، التي عادت إلى الإنطلاق من جديد .

* * *

« ما سألتنيش أنا جيت لك النهار ده ليه ؟! » .

رغم فجاجة السؤال ، فإن نبيل تقبله عن طيب خاطر . . . كان العشاء فاخراً بحق ، وقع اختيار أبو سليم على مطعم تحوطه حديقة بدت من خلف زجاج النوافذ كقطعة من الجنة . . . سرى دفء الطعام والشراب إلى أوصال نبيل فهدأت أعصابه . . . أثناء الطعام حكى لأبي سليم عن كل خطوة خطاها في الأيام الماضية . . . بالتفصيل كان يحكي ، وكلما غاب عن ذهنه شيء

طافت أسئلة الرجل حول هذا الشيء فإذا به ينتزعه انتزاعا ، وإذا نبيل مستسلم أكثر ما يكون الاستسلام .

« يعني مالقيتش شغل ! » .

« ما أنا حكيت لك يابو سليم ؟ » .

دس هذا يده في جيبه وأخرج منه قصاصة ورق انتزعت من جريدة ألمانية ربما كانت ديرشبيجيل ، وضع القصاصة تحت عين نبيل متسائلاً :

« قريت الإعلان ده ؟! » .

بذل نبيل جهداً حقيقياً كي يقرأ الإعلان المكتوب بالألمانية .

« ده إعلان عن وظيفة خالية » .

« والشرط اللي فيه إن المتقدم لازم يتقن العربية والإنجليزية ! » .

انتفض نبيل في جلسته وارتج تماماً .

« وده فين ؟! » .

أومأ أبو سليم نحو قصاصة الورق قائلاً :

« ماتقرأ الإعلان ! » .

« إنت عارف إني ما اعرفش ألماني كويس ! » .

« ما هو إنت لو كنت تعرف ألماني ، ماكنتش دخت الدوخة اللي إنت دختها دي . . . كان كفاية إنك تشتري الجرنان كل يوم الصبح ، وتشوف الوظايف اللي فيه ، وتتقدم ! » .

« ماانا قلت لك إني رحت معهد ! » .

« رحت كام يوم في الأسبوع اللي فات ؟! » .

غمغم نبيل خافضاً بصره :

« ماكانش ممكن أنتظم وأنا قاعد أستناك ساعة بساعة ! » .

سدد أبو سليم نظرة إلى عيني نبيل فانتفض هذا محتجاً :

« إيه بس يا أبو سليم ؟! » .

دق هذا بأصبعه فوق قصاصة الجريدة قائلاً :

« آخر ميعاد عشان تتقدم بكره ! » .
« من الفجر حاتلقاني هناك ! » .
« علشان كده لازم تنام بدري ! » .
قال أبو سليم هذا وهو ينهض واقفاً ، فنهض نبيل دون كلمة .
« مانتاش ناسي حاجة يا نبيل ؟! » .
« حاجة زي إيه ؟! » .
مد أبو سليم إليه يده قائلاً :
« فين مفتاح الشقة ؟! » .
في لهفة وارتباك ، قدم له نبيل المفتاح ، وكان يشعر أمامه بضعف لا حدود له !

* * *

بدت له عيناها في عمق المحيط ، أطلت عليه من خلف نظارة طبية كأنها السحر ، انسدل شعرها الذهبي كغدير يصب فوق الكتفين ، أنف قبيح بالقياس إلى شفتين مكتنزتين مفترتين عن دعوة دائمة ... مالت نحوه وصوتها يسبح بينهما .
« سيدي ؟! » .
كأنها نقلته من فوق الأرض إلى ذروة أحلامه ... كأنه لم يعش قبل أن يراها ، حاول النطق فضاع صوته في خفقات قلبه . عادت ترسل إليه صوتها السابح :
« سيدي ! » .
« جئت ... جئت ... ... » .
تلعثم وهو يجذب عينيه من براثن عينيها بجهد واضح .
« جئت من أجل الوظيفة الخالية ! » .
إفترت شفتاها عن ابتسامة كأنها إشراقة صبح في جنة ... امتدت يدها إلى أحد الأدراج وسحبت منه ورقة قدمتها إليه :

« إملأ هذه البيانات من فضلك » .
تناول الورقة وتلفت حوله فطوقه صوتها في حنان :
« تستطيع أن تستعمل المائدة الصغيرة على اليسار ! » .
خطا كالنائم نحو المائدة التي أشارت إليها فإذا الصوت يضمه من الخلف :
« إذا احتجت إلى أية مساعدة ... دعني أعرف من فضلك ! » .
وكانت نظرة واحدة إلى الورقة كفيلة بأن تؤكد له أنه في حاجة إلى المساعدة فعلاً ... ما أن رفع رأسه نحوها استجابت دون كلمة ، تخطت الحاجز وخطرت إليه كغزال يتراقص في مرعى يملكه وحده ، انحنت عليه فدثره عطرها بدثار من دفء نادر ، سرى الخدر إلى أوصاله وراح يكتب كل ما كانت تمليه عليه ... انتهى من ملء البيانات فتناولت منه الورقة واختفت خلف باب زجاجي ... تركته خافق القلب مبدد الوجدان فما هذا الذي يحدث له ، تذكر سامية فبدت له باهتة الملامح ... فتح الباب فانتفض ، تقدمت منه والإبتسامة تملأ وجهها كالشمس في يوم مطير !
« يريد المدير أن يراك ! » .
خطا نحو باب الغرفة فربت صوتها على كتفه :
« حظ سعيد ! » .

* * *

« تصور يا أبو سليم ، تصور ! » .
كان قد التقى به بعد الغروب في مقصف في أطراف المدينة !
« مش غريبة إن المدير يوصلني لحد باب الأوضة ؟! » .
بدت له ابتسامة أبو سليم غريبة ، وحتى صوته وهويسأل كان غريباً
« وحاتستلم الشغل من إمتى ؟! » .
« من بكره ... بكره الصبح ! » .
« طب مش تبعت جواب لسامية تبشرها !! » .

* * *

« والجوابات آهيه ! » .

هكذا قالت سامية فهمي لعادل مكي في صباح اليوم الثالث وهي تقدم له مجموعة من الخطابات يضمها شريط أزرق اللون . . . تناول عادل الخطابات وهو ينظر إلى وجهها ، كان موقناً أشد ما يكون اليقين ، أنها كانت تقدم له ، وبيدها ، قطعة من لحمها !!

* * *

الفصل التاسع

لويز جولدمان تبدأ مهمتها . . .

كان من الواضح أمام عادل مكي ، أن سامية فهمي قضت ليلة عصيبة بحق . . . سلمته مجموعة الخطابات وكانت تبدو شاحبة شحوباً عظيماً . . . أدرك على الفور أن لا جدوى من الحديث مع هذه الفتاة التي ابتلاها القدر بما لم تتخيله يوماً ، وضع الخطابات فيما بينهما وهو يرسم على شفتيه ابتسامة بلا معنى . . . قال كالمعتذر :

« تعبتي إنتي قوي يا سامية ؟! » .

« ماما تعبانه أكتر ! » .

اقتحم الطريق إلى عقلها قائلاً :

« اللي يقرأ لك في المجلة ما يتصورش إنك توصلي للحالة دي ! » .

« أصل مصر غالية قوي يا عادل بيه !! » .

هوت الجملة فيما بينهما فأحس بقلبه يكاد ينفجر لفرط الإشفاق عليها !

« مصر بخير طول ما فيها ناس زيك ! » .

سحت دموعها في صمت فلم تحاول حتى أن تمسحها ، خلعت نظارتها الطبية وتركت العنان للدمع كي ينهمر . . . . ساد الصمت طويلاً وكان عادل يدخن في شراهة . . . . نظرة واحدة منه إلى مجموعة الخطابات كانت كافية لأن تكمل الحلقة وتوضح الصورة ، تَذَكَّرَ أياماً ذهب فيها إلى ألمانيا ، إلى هامبورج بالذات . . . . ذهب كي يُحذِّر شاباً مصرياً كان ينزلق إلى هاوية بلا قرار . . . . تَذَكَّرَ كيف كان اللقاء وكيف كان الحوار . . . . إستغرق في الذكرى عندما جاءه

صوت سامية وكأنه يأتي من بعد سحيق :

« يوم ماجاني منه جواب بأنه استقر في هامبورج واشتغل في شركة سياحة كنت حاطير من الفرح !! » .

انقبض قلب عادل وسو ينظر إليها بدمعها وحزنها وضعفها فأدرك إنها الآن في سبيلها إلى مواجهة الحقيقة سافرة ! .... بدا له حديثها وكأنها تنعي نبيل سالم تتحدث عنه حديث حي عن عزيز اختطفه الموت فجأة !

« حسيت يومها إنه مخذلنيش ، حسيت إني فرحانه وعاوزه أقول للناس كلها إن نبيل نجح !! » .

في تلك الأيام التي كانت تتحدث عنها ، كانت سامية فهمي تبدو مشرقة متفجرة بالحياة راحت تبني حلماً فوق حلم حتى صنعت من أحلامها ناطحة سحاب كتلك الناطحات التي كان نبيل يكتب لها عنها ... في تلك الأيام بالذات ، اقتحم عليها فرحتها فريد الشاعر مدير التحرير ... لم يكن فريد بالنسبة لها مديراً للتحرير فقط ، بل كان أستاذاً وصديقاً وأخاً ... كان هو أول من التقت به عندما دخلت مجلة الفجر لأول مرة للتدريب حسب برامج الكلية ... كانت تتعثر خجلاً ورهبةً وحباً لتلك المهنة التي ملكت عليها حياتها ... كان فريد يناقشها ويوجهها ويكشف لها مواطن الضعف والقوة في موضوعاتها ، وحتى في صياغة أخبارها .... ظنت في البداية أن ما كان يفعله فريد الشاعر نوع عصري من الغزل فتأهبت لمعركة لم تقع على الإطلاق ... حتى كان يوم ، وكانا قد أصبحا صديقين حميمين ، حكت له فيه عن إحساسها نحوه في البداية فضحك فريد قائلاً :

« أصل اللي زيك يا سامية خسارة فيهم الغزل ! » .

أحست بالإهانة فهتفت مغاضبة :

« فريد ! » .

« ماتفهمنيش غلط ! » .

« طب فهمني ! » .

« اللي زيك يتحب من غير كلام ! » .

يومها أدركت سامية فهمي أن فريد الشاعر مدير التحرير وصديقها الأقرب يحبها ، حقاً ... كانت أعوام ثلاثة قد انقضت منذ أن دخلت إلى المجلة لأول مرة ... نظرت إليه فكأنها تراه لأول مرة ، كان فريد بالنسبة إليها مثل صفحة من صفحات المجلة الثابتة ... تتغير الموضوعات وتتلون وتتخذ أشكالاً عدة ، فيما عدا تلك الصفحة ثابتة في شكلها ومكانها وكأنها أَبَدٌ أو قَدَرٌ ... هكذا فريد الشاعر في حياتها قد أصبح ... هَمّتْ بالرد عليه لكنه كان قد انصرف ... هو يعلم أنها تحب نبيل سالم ولطالما حدثته عنه ولطالما تحدثا معاً عنه .... ذات يوم قال لها منفعلاً إنها تحب سراباً .... هي لا تدري كيف قال ما قال ولا لماذا نطق بما نطق به .... لكن كلماته في النهاية أغضبتها إلى حد الإحتقان ... لحظ غضبها واحتقانها فقال :

« يا سامية أنا ما اقدرش أكذب عليكي ! » .

« وأنا ماطلبتش منك إنك تكذب ! » .

« نبيل اللي في خيالك حاجة ... ونبيل الحقيقي حاجة تانية ! » .

« قصدك إيه ؟؟ » .

في نفاد صبر وحنان ، مال عليها مؤكداً :

« قصدي إنك بتحبي صورة صنعها خيالك ... مش بني آدم حقيقي ! » .

« إنت بتغير منه يا فريد ؟! » .

« يمكن !! » .

« معقولة ؟! » .

هكذا هتفت فلقد جاءتها الحقيقة هذه المرة سافرة بلا أقنعة من كلام .

« أيوه معقوله ... ليه لأ ؟! » .

« فريد ! » .

« وعلشان أبقى واضح قدامك تمام ، أحب أقول لك إني باحبك من زمان ! » .

« إيه اللي انت بتقوله ده ؟! » .

« أنا حبيت قبل كده كثير . . . لكن عمري ما فكرت أتجوز واحدة غيرك ! » .

هَمّتْ بالصراخ لكنه كان قد استدار ومضى . . . هكذا هو منذ أن التقت به وعرفته وزاملته وصادقته ، يقول قوله ويمضي تاركاً وراءه عاصفة في رأس محدثه .

حدث هذا في تلك الأيام المعبقة بأريج الأمل وخطابات نبيل تصلها بانتظام وهو يحدثها عن عمله وحياته ويصف لها مسكنه الصغير الذي انتقل إليه بعد إقامة طالت في فندق من فنادق الدرجة الثالثة . . . اعترف لها فريد الشاعر صراحة ولأول مرة ، بحبه . . . لكنه أبداً لم يذكر حديثهما هذا مرة أخرى ، أبداً لم يذكره . . . كان يبدو في تلك الأيام مستغرقاً في العمل إلى حد الانتحار !

... ...

... ...

« سامية ! » .

في رفق وحنو ناداها عادل مكي ، كان الدمع قد كف وجف وتحولت العينان إلى قطعتين من الزجاج تحجرتا في مكانهما فتحجر معهما كل الجسد فإذا هي تمثال للحزن يجلس !

« سامية ! » .

في بطء وتثاقل رفعت إليه رأسها .

« أظن من الأوفق إنك تروّحي النهار ده ! » .

« حاضر ! » .

قالتها في ضعف شرخ قلبه . . . تذكرها يوم رآها في قلعة الكبش وهي تدخل البيوت وتناقش السيدات وتحمسهن وتعلمهن وتحضهن على العمل في المشغل . . . . كانت تبدو مثل صاروخ منطلق ليست هناك قوة تستطيع وقفه ، رآها في تلك الأيام التي أعقبت زيارة نبيل للقاهرة مثل زهرة تنشر من حولها

شذى الحياة نفسها فأوقعته في الحيرة ، لكنها انتزعت إعجابه .

« تحبي أبعث معاكي حد يوصلك للبيت ؟! » .

« أنا عاوزه ابقى لوحدي ! » .

نهضت فنهض معها .

« تحب سيادتك تشوفني إمتى ؟ » .

« لما تستريحي وتستردي . . . . » .

صمت فرفعت إليه رأسها متسائلة :

« أسترد إيه ؟! » .

« تستردي سامية فهمي اللي باقرأ لها ! » .

هزت رأسها في صمت واستدارت نحو الباب فخطا بسرعة في اتجاه الباب كي يفتحه لها ، وضع يده فوق المقبض ثم توقف مستديراً نحوها :

« سامية . . . أنا مش محتاج أأكد عليكي . . . . » .

قاطعته :

« ماتخافش يا عادل بيه . . . ماتخافش . . . محدش حايعرف مني حاجة ! » .

فتح الباب فنفذت منه إلى الممر الطويل ، نادى على أحد رجاله فلبى الرجل النداء :

« أفندم ! » .

« وصّل الآنسة لحد البوابة اللي بره ! » .

ظل واقفاً في مكانه حتى اختفت . . . كانت تبدو مثل عود أخضر يتمايل في عاصفة هوجاء ظلت تسير مترنحة حتى اختفت ، عاد عادل إلى الغرفة وألقى بنظرة إلى مجموعة الخطابا . . . امتدت يده إليها والتفت أصابعه حولها بحرص . . . هنا . . . هنا بالقطع سوف يجد الكثير مما يبحث عنه ويريد معرفته . . . هنا سوف يجد الضوء الذي يكشف بعضاً مما غمض عليه !

* * *

خضعت مجموعة الخطابات التي أرسلها نبيل سالم إلى سامية فهمي ، منذ أن غادر مصر وحتى ذلك اليوم ، لعمليات تحليل ودراسة شديدة التعقيد . . لم يكن المطلوب فقط هو كشف الأسلوب الإسرائيلي في جمع المعلومات أو تجنيد الشباب أو السيطرة . . . كان المطلوب أيضاً أن تدرس خطابات نبيل سالم دراسة نفسية . . .

وكان السؤال الذي وضع أمام واحد من أبرز علماء النفس في مصر ، وبعد تحليل خط نبيل واختلافات انسيابه من خطاب إلى آخر تحليلاً علمياً بواسطة خبير في الخطوط ، هو : لماذا انزلق هذا الفتى ؟! . . . وما الأسباب التي دفعته إلى الخيانة ؟! . . . وهل كان واقعاً تحت ضغط من نوع خاص ، أم أن الضغوط حاصرته من كل جانب ؟! . . . ثم . . . ثم لماذا نبيل سالم بالذات ؟! . . . ولماذا اختير لهذا الدور ؟! . . . وكيف ولم وقع عليه الإختيار ؟! . . . ثم كيف حدد له دوره ؟! . . . أسئلة وأسئلة وعشرات الأسئلة كانت في حاجة إلى إجابات !

وكانت الإجابات تحمل في طياتها أكثر من نذير !

* * *

نحن لا نشك في أن الإسرائيليين عندما جاءوا بفتاتهم المدربة « لويز جولدمان » ـ التي عرفت في فرنسا باسم « صوفي جارديني » ـ إلى هامبورج تحت اسم « شيرلي هايمان » . . . كانوا بارعين في إخفاء شخصيتها . . . غير أن المثير للدهشة في الأمر كله . . . أن نبيل سالم عندما ذهب إلى تلك الشركة السياحية كي يتقدم للإلتحاق بالوظيفة التي أعلنوا عنها ، ثم التقى ـ أول ما التقى ـ بشيرلي هايمان ، سقط صريع هواها منذ اللحظة الأولى ، نسي سامية ونسي نفسه بل كاد ينسى أبو سليم دون سبب واضح . . . وحتى عندما سئل نبيل بعد ذلك عمّا حدث في تلك اللحظات الأولى ، لم يستطع تفسيره . . . بدا له الأمر كنوع من القضاء والقدر ، وكأن كل أحلامه في المرأة قد تحققت فجأة عندما وقعت عيناه على تلك الفتاة الإسرائيلية الشديدة الخطر !

غير أن هذه المسألة بالذات ـ وحتى الآن ـ تبدو وكأنها ضربة من ضربات الحظ العجيبة في هذا الحقل ، حظيت بها المخابرات الإسرائيلية من حيث لم تحتسب . . . وحتى القول بأن الأمر كان براعة من رجال الموساد الذين استطاعوا دراسة نبيل سالم دراسة وافية ودقيقة ، ثم اختاروا له تلك الفتاة كي تجسد له أحلامه فتمهد لهم الطريق لتنفيذ ما خططوه ، مردود عليه بأن شيرلي هايمان ، لعبت من قبل أدواراً أكثر خطورة بكثير من دورها هذا الذي يبدو متواضعاً إلى جانب ما قامت به تلك الفتاة في مجالات أخرى . . . وأغلب الظن أن لويز جولدمان التي عرفها نبيل سالم تحت اسم شيرلي هايمان ، قد اختيرت لهذا الدور فقط ، كي تسيطر على الفتى داخلياً . . . بل لتستعمل كل ما دربت عليه حتى تمتلكه امتلاكاً لا فكاك له منه . . . وهي في الوقت نفسه كانت ـ بحكم تجربتها السابقة مع الشباب الجزائري في باريس ـ أقدر من غيرها على وضع هذا الشاب التعس تحت مجهر البحث ، وفي سلسلة من الاختبارات كانت تستلزم قدرات من نوع خاص ، حتى إذا جُهِّزَ تماماً ، وثبتت صلاحيته ، أطلق إلى المهمة التي اختير لها !

. . .   .

. . .   .

عندما صافح مدير شركة السياحة نبيل مهنئاً إياه بالوظيفة الجديدة ، بعد لقاء لم يدم سوى دقائق لم تزد على العشرين ، بدا للشاب وكأن الأمر كله حلم لا حقيقة . . . ولو أن نبيل سالم توقف في ذلك اليوم للحظات أمام ما حدث لاكتشف أن الأمر من أوله إلى آخره كان مدبراً . . . ذلك أن المدير سأله إن كان يتقن اللغة العربية ، وهو يعرف أنه مصري . . . ثم طرح عليه أسئلة تؤكد معرفته الكاملة بإمكانات نبيل مما جعل الأمر يبدو وكأنه الإنسان المطلوب تماماً . . .

ونحن نرى أن نبيل سالم كان معذوراً ، فبعد سلسلة الفشل التي عانى منها ، كان لابد له أن يتشبث بالنجاح الوحيد الذي حققه بعد عامين من الضياع لم يحقق فيهما شيئاً على الإطلاق . . . ثم إذا أضيف إلى هذا أن المدير نهض كي يودعه حتى الباب ، ثم إذا ما قال له أن « مس هايمان » بالذات هي التي ستتولى تدريبه . . . كان لابد أن يطيش صوابه !

والآن . . . وقد كان جالساً إلى أبي سليم بعد الغروب في ذلك المقصف القائم في أطراف المدينة لم ينتبه ولم تلفت نظره ـ لفرط سعادته وإحساسه بالنجاح ـ تلك اللهجة التي استجدت في حديث أبي سليم ، وذلك الأسلوب الصارم في الأسئلة التي كان يوجهها إليه عما حدث منذ أن دخل الشركة حتى غادرها . . . لم ينتبه نبيل لأنه كان غارقاً في استعجال الغد ، فلقد كان على موعد مع شيرلي التي ضغطت على يده في رفق وهي تصافحه مهنئة وتكسرت نظراتها أمام عينيه التائهتين في ملامحها وهي تهمس :

« في الغد . . . ستجدني في انتظارك ! » .

« قال له أبو سليم وقد لحظ سهومه :

« أنا عاوز تفتح عينيك يا نبيل للشغل ، ولاحظ إنك كل ما تعلمت بسرعة ، كل ما كان ده في مصلحتك ، ومصلحة شغلنا ! » .

« شغلنا !! » .

هكذا هتف نبيل الذي كان قد نسي أن ثمة عملاً آخر يربطه بهذا الرجل الذي كان يحكم السيطرة عليه يوماً بعد آخر ، بل ساعة بعد ساعة . . . لم يجبه الرجل عن تساؤله ، بل راح يلقي عليه التعليمات في صرامة وجفاف . . . ان عليه ألا يضيع وقتاً وكفى ما ضيعه من شهور وأعوام فيما لا ينفع . . . ولا بد له من أن يواظب على الذهاب إلى المعهد حتى يتقن الألمانية في أقصر وقت ممكن ، كما أن عليه أن يستعين بهذه الفتاة التي ستتولى تدريبه . . . والتي اسمها اسمها . . .

« قلت لي اسمها إيه يا نبيل ؟! » . « شيرلي هايمان ! » .

« حلوة؟! » .

هز نبيل وكأن الأمر لا يعنيه :

« يعني !! » .

« المهم حاول تستفيد منها علشان تقوى اللغة بتاعتك ! » .

« ماتخافش عليّ يا بو سليم . . . أنا . . . . » .

وصمت نبيل بادي الحيرة :

« إيه ما لك ؟! » .

« أصلك قلت لي من شويه إن شغلي في الشركة في مصلحة شغلنا مع بعض ! » .

« طبعاً » .

« طب إزاي ؟! » .

رماه أبو سليم بنظرة نارية ، احتدم صوته وهو يميل نحوه متحدثاً في صوت خافت وجاف :

« أظن ان فيه اتفاق بيننا إنك ما تسألش ! » .

« أنا مش باسأل . . . أنا عاوز أعرف ! » .

« لما يبقى لازم إنك تعرف ، حانبقى نعرّفك ! » .

استوقفت نبيل كلمة « نعرّفك » لثوانٍ خاطفة لكنه ألقاها خلف ظهره مستجيباً :

« حاضر يا بو سليم ! » .

« ولازم تفهم ، وبوضوح شديد جداً ، إن أي حاجة في شغلنا . . . أي حاجة مهما كانت هايفة أو صغيرة أو بسيطة ، تعتبر سر على كل الناس إلا أنا وأنت ، كل الناس مهما كانوا قريبين منك أو ثقتك فيهم عالية ، كل الناس . . . كل الناس يا نبيل ما عدا أنا وأنت ! » .

مال نبيل نحوه متباسطاً وهو يقول :

« ما تخافش عليّ يا أبو سليم .. أنا . . . . » .

« لا . . . لا يا حبيبي ، المسألة مش بالبساطة اللي انت متخيلها ، إحنا نلعب في المخدرات يعني أي غلط فيها مؤبد ، أو إعدام ! » .

بدا التذمر على نبيل :

« خلاص يا أبو سليم . . . فيه حاجة تانية ؟! » .

بنظرة كأنها سهم مسموم ، قال :

« أيوه فيه ! » .

« خير ؟! » .

« تقوم من هنا على محطة السكة الحديد ، تأجر هناك خزنة وتخلي مفتاحها معاك على طول ! » .

« بسيطة ! » .

« ومش لازم حد في الدنيا يشوف المفتاح ده ! » .

« المهم أنا هاعمل إيه بالخزنة دي ؟! » .

« بعدين حاتعرف ! » .

« قال أبو سليم هذا في جفاء وهو ينهض قائلاً :

« المرة الجاية حانبقى نحط جدول لمقابلاتنا ! » .

« جدول ؟! » .

« إحنا مش اتفقنا إن الناس مش لازم يشوفونا مع بعض كثير ؟! » .

قال أبو سليم هذا ثم انصرف دون أن يلقي التحية على نبيل الذي كان واقعاً في حيرة وارتباك لا حدود لهما ... تركه وقد أفسد عليه أحلامه التي تشبثت بشيرلي هايمان .

في تلك الليلة ظل يسير في شوارع هامبورج على غير هدى ، مستغرقاً ، مستعيداً في كل دقيقة ، كل ما مر به مع شيرلي منذ أن رآها وحتى انصرف عنها ... راح يستعيد الكلمات والجمل والنظرات والإيماءات والإبتسامة وحتى الأنف القبيح بدا له متناسقاً مع الوجه كأحلى ما تكون الأنوف ... كان نبيل يتذكر ، ثم يحلل ، ثم يفسر ... كان سعيداً بحق ، وقبل أن يأوي إلى فراشه في تلك الليلة ، كان قد أدرك أنه وقع في الحب من أول نظرة !

* * *

هناك حقيقة لا سبيل إلى إنكارها ... هذه الحقيقة هي أن نبيل سالم نجح بالفعل في عمله الجديد نجاحاً لم يتوقعه حتى أبو سليم نفسه ! ... وفي خلال

أسابيع قليلة كان قد التقط كل أسرار الوظيفة من شيرلي هايمان التي أصبحت الآن تمضي معه أغلب أمسياتهما ، وفي خلال تلك الأسابيع نجح في تحصيل كمية لا بأس بها من كلمات اللغة الألمانية وقواعدها وأساليب نطقها وبعضاً يسيراً من آدابها .. كانت شيرلي ، إذا ما التقت به بعد مغادرته للمعهد ، تصر على ألاّ تتحدث إليه إلاّ بالألمانية ، كانت تقول له إن نصف إتقان اللغة ـ أية لغة ـ هو في ممارسة الحديث بها ... وكانت شيرلي الآن قد أصبحت جزءاً من حياته ... حتى إذا كان يوم ، ولم يكن قد مضى على نبيل أكثر من أربعة أسابيع ، أعلن مدير الشركة أن الهر نبيل سالم سوف يتولى مسؤولية سيارة تحمل خمسين سائحاً ، نصفهم من العرب ، والنصف الآخر من جنسيات أخرى ، لكنهم جميعاً يتحدثون الإنجليزية !

« هر نبيل ... لعلك تعلم مقدار الأهمية التي نضعها على نجاحك في رحلتك الأولى ! » .

« لا تخشَ شيئاً سيدي المدير ، ستجدني كما تريد لي بالضبط ! » .

ابتسم الرجل لمجاملة الفتى الذي كان يتفجر بالسعادة أمامه ... وما أن علمت شيرلي بتلك الترقية حتى قفزت إليه وطوقت عنقه بذراعيها ، وطبعت على شفتيه قبلة حارة .. فدار رأسه !

« كم أنا سعيدة يا حبيبي ! » .

وكما كانت القبلة التي منحته إياها هي قبلتها الأولى له ، كانت كلمة **« حبيبي »** هي الأخرى وكأنها شهادة عقد لم يوقع بعد !

وكم كانت الدنيا زاهية في عيني نبيل سالم !!

... ...

... ...

في صباح اليوم التالي هتفت به شيرلي هايمان :

« أين غاب عنك منتجو السينما أيها الشاب ؟! » .

كان نبيل بالفعل وسيماً في اليونيفورم الخاص بالشركة . . . اقترب منها هامساً :

« ألا تتمنين لي حظاً سعيداً ؟! » .

« لا تنسَ أنك مدعو على العشاء الليلة ؟! » .

« عشاء ؟! . . ومن الداعي ؟! » .

« فتاة أمريكية سعيدة الحظ لأنها عرفتك وهي تريد الليلة أن تحتفل بك ومعك ! » .

كان غزلها رفيعاً ، وكانت تتسرب إلى دمائه يوماً بعد يوم . . . تركها على مضض ودلف إلى مكاتب الشركة كي يجهز أوراقه وحقيبته ويراجع الأسماء . . . دلف إلى أحد المكاتب مندفعاً إلا أنه توقف فجأة وكأنه تسمر في الأرض . . . فأمامه مباشرة ، كان أبو سليم يجلس إلى أحد الموظفين وقد استغرقا معاً في مناقشة حامية حول تأجير سيارات ، ما أن توقف نبيل حتى التفت أبو سليم نحوه ، وكانت نظرة واحدة من الرجل كافية لأن تنبه فتظاهر كلٌ منهما بأنه لا يعرف الآخر . . . ألقى نبيل عليهما تحية الصباح ثم اندفع نحو المكتب الذي خصص له وراح يراجع الأوراق والكشوف . . . استخرج من أحد الأدراج حقيبة متوسطة الحجم شديدة الأناقة تحمل اسم الشركة وضعها أمامه وراح يرتب أوراقه مستغرقاً في عمله . . . هتف الموظف في أبي سليم أن الفواتير القديمة موجودة ، لكنها في قسم آخر . . . وما لبث الرجل ، مع إلحاح أبو سليم أن نهض مغادراً الغرفة .

« ظل نبيل ـ رغم انصراف الرجل ـ مستغرقاً فيما هو فيه حتى جاءه صوت أبي سليم :

« بص للشنطة دي كويس يا نبيل ! » .

رفع نبيل بصره إلى الرجل ، ثم انحدر به إلى الحقيبة الراقدة فوق المكتب :

« دي بتاعة الشركة ! » .

« لما تطلع الأوتوبيس حاتلاقي فوق الكرسي نمرة ١٢ شنطة زيها بالضبط ! » .

« من بتوع الشركة ؟! » .

« من بتوع الشركة ! » .

« ودي مالها ؟! » .

« ملهاش . . . خد الأوراق اللي حاتستعملها ، وحط شنطتك جنبها ! » .

« ليه ؟! » .

« علشان وإنت نازل لازم تغلط وتأخذ الشنطة التانية وتسيب دي ! » .

قفز قلب نبيل إلى حلقه ، أضاء النور فجأة على حقيقة لم تغب عنه ، وإن كان قد غيبها هرباً . .

« ما هو . . . أصل . . . يعني لما . . . » .

لم يكن يريد أن يقول شيئاً . . . كان فقط يبحث عن صوته ، وعندما وجده قال :

« ولما آخذ الشنطة أوديها فين ؟! » .

« تحطها في الخزنة اللي انت أجرتها في محطة السكة الحديد ! » .

« وإذا حد مسكني ؟! » .

« حاتقول إنك أخدتها غلط وإن شنطتك اللي فيها الأوراق في الأوتوبيس ! » .

أضاءت وجه نبيل ابتسامة . . . ، وزفر .

« وبعدين ؟! » .

« عارف مكتبة فانداو ؟! » .

« طبعاً عارفها ! » .

« في القسم بتاع الروايات والقصص ، في الرف الثالث على يمينك فيه مجموعة أعمال جوته . . عارفه ؟! » .

« ده شاعر ألماني ! » .

« أول مجموعة كتب على الشمال حاتلقاها رواية فاوست ! » .

« رواية فاوست ! » .

« أول نسخة في المجموعة دي ، تاخدها ، تقرأ فيها شوية ، وتحط مفتاح الخزنة في صفحة ٨٠ ـ ٨١ وترجع النسخة مكانها بالضبط ، وتمشي على طول من غير ما تبص وراك ! » .

همَّ نبيل بالسؤال لكن الموظف عاد مهرولاً وهو يمسك في يده ملفاً قدمه لأبي سليم .

« إليك يا سيدي كل ما تريده من فواتير قديمة ! » .

استغرق أبو سليم في عمله ، وعاد نبيل إلى ما كان فيه ، لكنه كان الآن يشعر بأنه سيخطو خطوته الأولى نحو عالم غامض وغريب ، تفجرت في رأسه عشرات الأسئلة ، لكنه كان يعلم يقيناً ، إنه حتى الإجابات لن تشفي غليله ، ولن تصل به إلى بر . . . فاستسلم لقدره !

* * *

الفصل العاشر

الحقيبة والمفتاح !

ليس منطقياً أن نتهم نبيل سالم بالغفلة أو الغباء . . . ذلك أن كل الأحداث التي مرت بهذا الشاب التعس ، أكدت أنه يدرك معنى الأحداث في حينها ، لكنه على حد تعبيره فيما بعد ـ كان « يطنش » ، ويلقي خلف ظهره بكل ما من شأنه أن يجعله يتأمل أو يتدبر أمره !

ويقيناً . . . فإن مسألة اختياره لتلك الوظيفة التي أعلنت عنها شركة السياحة الأمريكية هذه لم تمر عليه مرور الكرام ، حتى وإن تشبث أمام وعيه بأنهم قبلوه لكفاءته ، أو ـ على الأقل ـ لأنه كان أصلح من تقدم للوظيفة ، فلقد كانت الطريقة التي قابله بها المدير ، وتلك الأسئلة الساذجة التي طرحها الرجل عليه ، والتسهيلات التي قدمت له . . . كل هذا جعله ، ولو في لاوعيه ، يوقن بشكل غامض ، أن أصابع أبي سليم كانت وراء هذا الذي حدث !

لذلك ، فهو عندما رأى أبا سليم في أحد مكاتب الشركة يتفاوض ويتناقش مع أحد الموظفين ، تصاعد هذا الإحساس إلى وعيه بوضوح ، وعندما غادر الموظف الغرفة ، لم يفت نبيل أنه غاب لدقائق كانت كافية لأن يلقي له أبو سليم بتعليماته الجديدة حول الحقيبة . . . وأنه عاد إلى الغرفة في الوقت المناسب تماماً . . . لذلك ، فلقد قرر الاستسلام لواقعه ، لأنه لم يكن على استعداد لأن يفقد ذلك الواقع الذي كان يتشبث به تشبثاً ملك عليه تفكيره . . . فهو ـ مثلاً ـ لم يكن على استعداد لأن يفقد تلك الوظيفة كي يعود إلى مطبخ مطعم حقير ، ولم يكن على استعداد لأن يفقد صلته بشيرلي هايمان التي مثلت له في تلك الأيام ذروة السعادة ، بل ـ ودون مبالغة ـ ذروة إحساسه بالأمان !!!

. . . .

كانت شيرلي قد استطاعت أن تحتويه احتواءً كاملاً ، وبالتأكيد . . . فإن هذه الفتاة الخطيرة كانت تعرف عنه كل شيء ، كما كانت ـ في نفس الوقت ـ قد لُقنت بما يجب عليها أن تفعله معه . . . وبخبرتها السابقة مع الشباب الجزائري في باريس ، فلم يكن الأمر يشكل أي نوع من أنواع الصعوبة بالنسبة إليها . . . وهكذا وما أنْ شرعت في وجهه أسلحتها ، حتى سقط نبيل سالم في شِرَاكها ، واستسلم دون مقاومة !

وإذا كان نبيل أحس بهذا وارتضاه ، إلا أنه لم يتساءل عن السبب الذي من أجله اختار أبو سليم ذلك الوقت ـ الشديد الضيق ـ كي يلقي إليه بتعليماته فيما يختص بأخطر مرحلة من مراحل تعاونهما معاً . . . وحتى إن كان قد تساءل ، فهو بالتأكيد لم يكن ليفهم أو يعي تلك الشراك التي نُصِبَتْ من حوله كي تسيطر عليه وتسلبه كل إرادة ، وتحوله من إنسان إلى أداة طيعة لا حول لها ولا قوة !

لم يكن الأمر في حاجة إلى ذكاء ، كي يعلم نبيل أن الحقيبة التي كان عليه أن يأخذها من الأوتوبيس ، كانت محملة بالمخدرات . . . ولقد حمد لأبي سليم أنه اختار ذلك الأسلوب الذي قد يجنبه الكثير من المآزق « لو أن الطوبة جاءت في المعطوبة » وقبض عليه . . . ففي ذلك الوقت ، لم يكن عليه إلا أن يقول إن لَبْساً قد حدث، وإنه أخذ تلك الحقيبة خطأً بدلاً من حقيبته التي كانت موضوعة إلى جوارها . . . وعلى كل ، فما أن صعد إلى الأوتوبيس ، وكان السائحون قد سبقوه إليه واحتلوا مقاعدهم ، وما أن ألقى ببصره إلى الرف الذي يعلو المقعد رقم ١٢ ، حتى وجد تلك الحقيبة الأخرى ، فإذا بها نسخة طبق الأصل من تلك التي يحملها . . . كان لها نفس اللون ونفس الحجم ونفس المواصفات . . . كما كانت تحمل نفس « بادج » الشركة الذي يُحَلّي حقيبته هو أيضاً !

حَمَد نبيل سالم لأبي سليم هذا حقاً ، لكن ذهنه أبداً لم يتطرق ـ ولم يكن ليتطرق ـ إلى أن الرجل كان قد بدأ تدريبه منذ ذلك اليوم . . . فمما لا شك فيه أن تلك الحقيبة الأخرى التي كانت تنتظر نبيل على الرف الذي يعلو المقعد رقم ١٢ في الأوتوبيس ، لم تكن تحوي مخدرات ولا يحزنون ، بل كانت تحوي

بعض أوراق صحف ومجلات ، مما يعطيها نفس وزن الحقيبة لو أنها كانت محملة بالمخدرات فعلاً . . . وإن أبا سليم عندما اختار هذا الوقت الضيق كي يلقي إليه بتعليماته ، إنما كان يدربه على سرعة الاستيعاب دون مراجعة ، ولو أن نبيل أخطأ في استيعابه لتعليمات أبي سليم ، لما حدث ضرر محقق ، ولكن . . . كان الأمر سوف يصبح ، بالنسبة إليه ، ذا وجه آخر بكل تأكيد !

وللحقيقة ، ورغم اضطراب نبيل الداخلي ، فإن الأمر بَدَا لَهُ ، في مراحله المختلفة ، أسهل وأبسط بكثير مما كان يتصور . . . فهو ، ما أن لمح تلك الحقيبة ، حتى توجه إلى مقعده بجوار السائق ، وفتح حقيبة أوراقه ، وأخرج منها ما يحتاج إليه من أوراق ، ثم أغلقها وعاد بها إلى حيث كانت الحقيبة الأخرى ، فوضع هذه إلى جوار تلك ، ثم عاد إلى مكانه ، وكان الأمر يبدو طبيعياً للغاية !

قبل أن ينطلق الأوتوبيس ، كانت شيرلي هايمان هناك ، على الرصيف ، تنظر إليه متتبعة خطاه ، متطلعة مشرئبة العنق تبدو وكأن السعادة تملؤها . . . حتى إذا تحرك الأوتوبيس وأمسك نبيل بالميكروفون ، وألقى بتحية الصباح على السائحين ، رفعت له يدها ملوحة ثم أرسلت له قبلة في الهواء ، علناً وأمام الجميع ، وكأنها تعلن للعالم كله موقفها بوضوح !

. . . .

. . . .

ولقد كانت رحلته الأولى ممتازة بكل المعاني ، كان مُوَفَّقاً في شرح معالم المدينة التي قضى ليالي وليالي في استذكارها ومعرفة تواريخها . . . كان يتحدث إلى الفوج بالعربية أولاً ، ثم يعيد الشرح بالإنجليزية في سرعة ولباقة وخفة ظل جعلت الركاب ينجذبون إليه ويمطرونه بالأسئلة والطلبات فقضى معهم يوماً مشهوداً . . . حتى إذا ما انتهت الجولة ، وعاد الأوتوبيس إلى مقر الشركة قبل الغروب بقليل ، وراح هو يودع الركاب ويداعبهم أحس نبيل برضا عن نفسه جعله يمتلىء بالغبطة . . . ومع مغادرة آخر الركاب ، جمع أوراقه ، واتجه نحو الرف كي يأخذ الحقيبة . . . لم يجد هناك سوى الحقيبة الأخرى ،

أما حقيبته هو ، فكانت قد اختفت !!

احس وهو يحمل تلك الحقيبة التي كان المفروض أنها محملة بالمخدرات، أنها في ثقل جبل . . . غادر الأوتوبيس فتجمع السائحون من حوله وراحوا يمطرونه بالشكر على اليوم الذي قضاه معهم ، لمح ـ بجانب عينه ـ مدير الشركة واقفاً خلف زجاج نافذة مكتبه يرقب ما يجري ، وكانت شيرلي هناك تنظر إليه باسمة . . . تبادل معها نظرة سريعة وأسرع إلى حيث كان مكتبه . . . أودع الأوراق أحد الأدراج وحمل الحقيبة وهم بمغادرة المكتب عندما اقتحمت عليه شيرلي الغرفة !

« إلى أين أنت ذاهب ؟! » .

« موعد سابق مع صديق قديم ! » .

كانت بعينيها نظرة عتاب فأوضح :

« أنا لم أنس أني مدعو الليلة على العشاء ! » .

« ولماذا أنت عصبي ؟! » .

أرتج نبيل ، فلم يكن قد انتبه إلى عصبيته ، ولم يكن في انتظار مثل هذا السؤال ، هتف :

« هل أنا عصبي حقاً ؟! » .

تجاهلت سؤاله مراوغة :

« موعدنا في السابعة فلا تتأخر ! » .

جاءته لهجتها حاسمة باترة وكأن سلطانها عليه لا شك فيه . . . جمد لثوانٍ وراح يتأملها بنظرة إعجاب ، وما لبث أن مال عليها وطبع قبلة فوق وجنتها فتضرج وجهها بلون الدماء . . . تبعثرت أنفاسه فخفض بصره متمتماً بكلمات إعتذار فهو لم يكن يقصد إلى ما فعل . . . فرغم الأسابيع التي قضاها معاً ، فقد تجاوز معها إلى . . . إلى حد القبلات . . . هرول مغادراً الغرفة لا يلوي على شيء ، كان سابحاً فوق السحاب لا يدري أن كل ما مر به لم يكن سوى امتحان

بعد امتحان . . . وأن شيرلي هايمان ، بعد ذلك بدقائق ، كانت تقدم تقريراً عما حدث بينهما ، وعن رأيها فيما حدث ، وأنها ختمت تقريرها بالحديث عن تلك القبلة التي طبعها فوق وجنتها قائلة :

« أعتقد إنه انتهى تماماً !! » .

* * *

نَفَّذَ نبيل الأوامر التي صدرت إليه تنفيذاً دقيقاً !

وضع الحقيبة في الخزينة التي استأجرها في محطة السكة الحديد !

استقل أحد الأوتوبيسات إلى مكتبة « فانداد » . . . دخل المكتبة بحثاً عن قسم الأدب الألماني . . . وقف أمام الركن الذي ذكره له أبو سليم ، كانت هناك مجموعة من كتاب « فاوست » للشاعر الألماني « جوته » ، مد يده إلى الكتاب الأول في المجموعة وتذكر قول أبو سليم :

« . . . . تحط المفتاح في الكتاب وتمشي من غير ما تبص وراك ! » .

كان المفتاح الصغير في يده فتلفت حوله وكان يقف في ممر طويل بين أرفف مكدسة بالكتب . . . وضع المفتاح بين صفحتي ٨٠ و ٨١ ثم أعاد لكتاب إلى مكانه وغادر المكتبة على عجل !

* * *

كان موعده مع شيرلي هايمان في أحد المطاعم الصغيرة الذي ارتاحا إليه وتعودا التردد عليه ، استقبلته شيرلي بنظرة طويلة فاحصة . . . كان نبيل سالم يبدو الآن وكأنه إنسان آخر ، شيء غريب كان قد تغير فيه . . . حتى نبيل نفسه كان قد أدرك وهو يحمل الحقيبة المليئة بالمخدرات إنه أصبح إنساناً آخر . . . كان هو هو نفس الشاب الوسيم المرح المتدفق بالحيوية . . . لكن شيئاً ما ، شيئاً غريباً ربما في أعماقه ، أو في روحه . . . شيئاً كان قد تغير فغيره !!

فبينما كان يتحدث ويحكي ويقص ما حدث له في يومه الأول في سعادة . . . ورغم أنه كان يتحدث بالألمانية ، فإن حديثه كان متدفقاً ، وذهنه

صاحياً ، وتوتره يتصاعد لحظة بعد لحظة . . . حتى إذا ما انتبه إلى أنها تحملق فيه توقف متسائلاً :

« شيرلي . . . لِمَ تحملقين فيَّ هكذا ؟! » .

مالت نحوه واضعة عينيها في عينيه :

« لقد كنت مع صديق قديم . . . أليس كذلك ؟! » .

اضطرب هاتفاً :

« نعم !! » .

« إذن فأين حقيبتك أيها العزيز ؟! » .

« إنتبه نبيل في لحظة خاطفة إلى أن ثمة شيئاً ما قد غاب عن ذهنه ، فعندما طلب منه أبو سليم أن يضع الحقيبة في خزينة محطة السكة الحديد ، وأن يدس المفتاح في نسخة من نسخ قصة « فاوست » لجوته . . . لم يسأله كيف سيذهب إلى عمله في اليوم التالي بلا حقيبة ، وكيف سيسترد حقيبته التي أخذت من فوق المقعد رقم ١٢ . . . ولقد أصابه إحساسه بالغفلة بإحباط بدا على ملامحه واضحاً ، مما دفع شيرلي هايمان إلى أن تسأله :

« ماذا أصابك يا نبيل ؟! » .

راوغها هارباً مما كان يعتمل في نفسه :

« لعلك تشكين في إخلاصي يا شيرلي ؟! » .

« كنت أسألك عن الحقيبة ؟! » .

« هل تغارين ؟! » .

ضحكت - ربما رغماً عنها - ضحكة فيها من السخرية ما لم يخف عليه ، فزاد هذا من إحساسه بالإحباط . . . وما لبثت شيرلي أن قالت :

« نبيل ، لعلك لم تفهم سؤالي ؟! » .

قال :

« فهمته . . . ولقد مررت على الفندق قبل أن آتي إلى هنا ، وتركت الحقيبة هناك ! » .

ولقد اكتفت شيرلي بجوابه هذا فمدت يدها وربتت على يده في حنان أذابه :

« عليك أن تنتهي من عشائك أيها العزيز . . . ولا بد أن اليوم كان مرهقاً بالنسبة إليك ! » .

همَّ بالاحتجاج فأردفت :

« ولا تنس أن لديك موعداً في الصباح الباكر مع فوج آخر ! » .

وهكذا انقضت ليلة عرسه الأول في وجوم ، فلقد راح ذهنه يلوك مشكلة الحقيبة فيزداد قلقه لحظة بعد أخرى . . . أخذ يتساءل كيف فات الأمر عليه وكيف سيذهب إلى عمله في الصباح دون حقيبة وكيف غفل أبو سليم عن مثل هذا « المطلب » وهو الذي لا يفوته شيء . . . تناول عشاءه فغادرته الفتاة ومضى إلى فندقه غارقاً في حيرة بلا حدود . . . لكن حيرته تبددت تماماً عندما فتح باب غرفته ، وأضاء النور كي يجد أبا سليم قد سبقه إليها !

* * *

كانت نظرة سريعة كافية لأن يكتشف أن حقيبته موضوعة إلى جوار أبي سليم !

« كنت فين ؟! » .

في جفاء جاء رده :

« كنت باتعشى ! » .

« لوحدك ؟! » .

« لا . . . شيرلي هايمان كانت معايا ! » .

« هادي البنت الأمريكانية اللي بتشتغل معاك في الشركة ؟! » .

« أيوه هي ! » .

« ما قلتليش يعني أنكوا بقيتوا أصحاب ؟! » .

« وهو أنا لازم أقول لك على كل حاجة ؟! » .

« كل حاجة كبيرة أو صغيرة ، وكل إنسان تشوفه أو تصاحبه أو تصادفه أو تقابله ! » .

« معقول ده يا أبو سليم ؟! » .

« اللي أوله شرط آخره نور ! » .

« دي كانت عازماني على العشا بمناسبة خروجي مع أول فوج ليَّه ! » .

« اتكلمتوا في إيه ؟! » .

« في حاجات كثير ! » .

« سألتك على حاجة ؟! » .

« سألتني واحنا في الشركة رايح فين قلت لها عندي ميعاد مع واحد صاحبي ! » .

« ما سألتكش على حاجة ثانية ؟! » .

« لما رجعت لها سألتني عن الشنطة ! » .

« قلت لها إيه ؟! » .

« قلت لها إني وديتها اللوكانده ! » .

« وديت البضاعة في الخزنة ؟! » .

« وحطيت المفتاح في الكتاب ! » .

« وشنطتك فين ؟! » .

تذمر نبيل قافزاً من مكانه :

« ما هو ده اللي قلب كياني ! » .

« وكان لازم تأخذ بالك وتسأل ! » .

« مكانش ممكن ! » .

« إحنا ما يلزمناش ناس نايمة ! » .

« لاحظ إنك فاجئتني ! » .

« أي تعليمات بالنسبة لأي عملية حاتبقى مفاجأة !! » .

« كان لازم أعرف من الأول ! » .

« يعني إنت عرفت دلوقت ؟! » .

« أكيد ! » .

أشار أبو سليم إلى الحقيبة الموضوعة إلى جواره :

« الشنطة آهيه ! » .

« شفتها ! » .

« كتبت لسامية ؟! » .

« لسه ! » .

« لازم تكتب لها ! » .

« ليه لازم يعني ؟! » .

أطلقت عينا أبي سليم تلك النظرة النارية فتراجع نبيل مغمغماً :

« خلاص . . . حاكتب لها ! » .

مد الرجل يده في جيبه وأخرج رزمة صغيرة من الماركات الألمانية ألقى بها فوق المائدة الصغيرة التي كانت تتوسطهما :

« ده حسابك في عملية النهار ده ! » .

نظر نبيل إلى النقود غير مصدق ، قدر عددها وكانت تصل إلى بضع مئات من الماركات اضطرب قليلاً لكنه تماسك ولم يمد يده إليها . . . تحرك أبو سليم في مكانه كمن يهم بالإنصراف ، فهتف نبيل :

« مش حانتفق ؟! » .

« على إيه ؟! » .

« شنطة الشغل حابقى أخدها إزاي بعد ما أوصل البضاعة ! » .

ابتسم أبو سليم :

« بدأت تتعلم ! » .

« تلميذك يا أبو سليم ! » .

كان الحوار بينهما هذه المرة جافاً . . . لم يكن أبو سليم الذي يجلس أمامه الآن هو أبا سليم الذي تعرف عليه وأحبه وصادقه واستسلم له . . . تركه الرجل ومضى فتناول هذا رزمة الأوراق المالية وكان المبلغ مجزياً بحق . . . أحس نبيل سالم في تلك الليلة فقط أنه من الممكن أن يصنع شيئاً وأن يكون شخصاً له اعتباره . . . تشتت فكره عندما ألحت عليه شيرلي هايمان . . . فكر في الاتصال بها لكنه اكتشف أنه لا يعرف لها عنواناً أو رقم تليفون . . مثلها مثل أبي سليم الذي طلب منه ذات يوم رقم تليفونه فسأله هذا في جفاء :

« ليه ؟! » .

« مش يمكن أحتاج لك ؟! » .

« لما تحتاجني حاتلقاني جنبك يا نبيل !! » .

قضى تلك الليلة تمزقه أحاسيس متناقضة . . . كان سعيداً بنجاحه في الشركة كما كان سعيداً لحصوله على هذا القدر من المال ، لكنه كان يشعر وكأنه معلق في فضاء لا أرض له . . . كان كل شيء يبدو رائعاً لكنها روعة ناقصة ، معلقة على كف عفريت . . . غامضة غموضاً جعل من نومه رحلة للعذاب !!

غير أن مرور الأيام كان كفيلاً بأن يجعل كل شيء يبدو طبيعياً للغاية . . . وأن يضفي على المسألة كلها طابع الأمان . . . فلقد تعود نبيل سالم أن تأتيه الأوامر من أبي سليم في أية لحظة وبأية وسيلة . . . لم يكن الأمر يحتاج إلا إلى كلمة أو كلمتين كي يجد الحقيبة فوق رف يعلو مقعداً كان رقمه يتغير في كل مرة . . . كما كانت الخزينة هي الأخرى تتغير كل بضعة أسابيع . . . وإذا ما قام بما عليه وجد المال بين يديه سهلاً ميسوراً . . . وإذا كان نبيل قد استغرق في علاقته بشيرلي هايمان استغراقاً جعل الفكاك منها أمراً شديد الصعوبة . . . فلقد كان مواظباً على الكتابة لسامية فهمي ، وكانت خطاباته في تلك الفترة تبدو لها مشرقة كل الإشراق . . . لم يكن يحدثها بطبيعة الحال عن الحب ، لكنه كان يحدثها عن النجاح الذي أصبح يسير في ركابه . . . وتجمع لديه بضعة ألوف من الماركات دفعته ذات يوم إلى أن يشتري بذلة غالية طالما رآها معروضة في النافذة الزجاجية لأحد المحلات الكبرى والشهيرة . . . لكنه في اليوم الذي

ارتداها فيه لاقى ما لم يتوقعه أو يتخيله . . . كان على موعد مع شيرلي للعشاء في أحد المحلات الراقية . . . دهشت وهي تسأله من أين جاء بالمال كي يدعوها إلى محل مثل هذا . . . لكنه راوغ قائلاً إنه كان يقتصد ويقتر حتى يستطيع دعوتها إلى ذلك المحل . . . في تلك الليلة ارتدى البذلة الجديدة ووقف أمام المرآة يتأمل نفسه في إعجاب عندما دق جرس التليفون وكان أبو سليم هو المتحدث وكان يريد لقاءه في إحدى الحدائق بعيداً عن الأنظار . . . وفوراً !

أسقط في يد نبيل فلقد كان موعده مع شيرلي اقترب ولم تكن هناك وسيلة للإعتذار فهو لا يعرف كيف يتصل بها ولا أين . . . لكنه لم يكن ليستطيع أن يناقش أو يجادل أو يعتذر ، لم يكن ليستطيع إلا أن يلبي فلبّى . . . ما أن رآه أبو سليم حتى بدا الغضب عليه واضحاً :

« إيه ما لك يا أبو سليم ؟! » .

« إيه اللي انت لابسه ده ؟! » .

« دي بدلة جديدة اشتريتها من يومين ؟! » .

« بكام ؟! » .

ما أن سأله أبو سليم هذا السؤال حتى انتبه إلى ما وقع فيه من خطأ فارتبك وتلجلج وراح يغمغم بكلمات لا معنى لها وإذا بأبي سليم يستطرد محتدماً :

« تفتكر موظف زيك في شركة سياحة ، ممكن يشتري بدلة زي دي ؟! » .

ازداد ارتباكه فتساءل :

« قصدك إيه ؟! » .

« قصدي واضح يا نبيل ؟! » .

صمت نبيل وقد نبتت قطرات عرق فوق جبهته وإذا الرجل يزمجر :

« ما رديتش على سؤالي » .

« لا طبعاً . . . مش ممكن ! » .

« طب حاتقول إيه لشيرلي هايمان لما تسألك جبت فلوس البدلة منين ؟! » .

خفق قلبه فلقد تذكر سؤال شيرلي ، وعاد أبو سليم مردفاً :

« بلاش شيرلي هايمان . . . أي حد يشوفك لا بس البدلة دي حايقول إيه ؟! » .

« وإيه المطلوب مني دلوقت ؟! » .

« زعلت ؟! » .

جاءه السؤال مباغتاً فاختنق .

« أنا خايف عليك يا نبيل !! » .

شحب وجه نبيل شحوباً عظيماً وقد مزقته كلمات الرجل وأسلوبه الذي كان يتراوح ما بين قسوة رهيبة وحنان دافيء .

« تفتكر اللي زينا بيقعوا في إيدين البوليس ليه ؟! » .

نظر إليه نبيل مستفسراً فاستطرد هذا :

« لأنهم ما بياخدوش بالهم من حاجات كتير . . . تلاقي واحد خالي شغل ولابس بدلة تمنها الشيء الفلاني وبيصرف الفلوس زي التراب . . . على طول الناس حاتسأل جاب الفلوس منين ، ويبدأ البوليس يشك ، ويبدأ في مراقبته ! » .

كان حديث الرجل منطقياً ، كما كان مقنعاً !

« وفي حالتك أنت ، الناس مش حاتشك في أنا ! ! » .

حاول نبيل المقاومة :

« اشمعنى فريدريك بيلبس ويصرف وساكن في شقة محترمة ؟! » .

« ماحنا قلنا من الأول . . . فريدريك ألماني ، وممكن تكون له ألف شغلانة وشغلانة . . . لكن إحنا أعراب ، وكل شغلانة بنشتغلها لازم إدارة الهجرة تأخذ خبر بيها ! » .

في استسلام قال نبيل :

« معاك حق يا أبو سليم ! » .

« هتف أبو سليم ضاحكاً وهو يغمز بعينه :

« وعلى كل . . . أنا عارف إنك عاوز تسيب اللوكاندة وتسكن في شقة ! » .

« قصدك إيه ؟! » .

« مش المهم قصدي . . . المهم إنك عاوز تتنقل فعلاً !! » .

وبالرغم من أن نبيل لم يكن ـ حتى تلك اللحظة ـ قد فكر في الأمر، فإن الرجل كان يدفعه بأسلوبه ونبرته الموحية إلى الإستجابة ولقد صاح نبيل مكابراً :

« حقي يا أبو سليم ، حقي . . . إنت ماتعرفش أنا تعبت قد إيه في السنين اللي فاتوا ! » .

« طب ما تنقل لشقة كويسة يا أخي ! » .

« إنتقل إزاي وانت واقف لي على الواحدة ؟! » .

« بالعكس . . . لو كانت الشقة معقولة مش حاتلفت الأنظار . . . وحايبقى أمر طبيعي إنك تسكن فيها بعد ما لقيت وظيفة خالية ! » .

« يعني أرمي البدلة دي ؟! » .

« وترميها ليه . . . كلها شهرين ثلاثة وتاخد علاوة وتلبس زي ما انت عاوز ! » .

وابتسم نبيل !

ابتسم وقد عاوده الأمل من جديد . . . كان قد تعود أن تتحقق كل نبوءات أبي سليم . . . كان عليه في تلك الليلة أن يبدل ملابسه قبل الذهاب إلى شيرلي حيث كانت في انتظاره متظاهرة بالغضب فصالحها . . . أصبح كل همه منذ اليوم التالي هو البحث عن شقة مناسبة ولم تمض أيام حتى وجدها بمساعدة

شيرلي هايمان . . . كانت شقة صغيرة مؤثثة بأثاث بسيط لكنه أنيق ، وكان فيها كل ما يحتاج إليه وكل ما حلم به . . . أكثر ما أسعده في هذه الشقة . . . أن شيرلي ـ أحياناً ـ كانت تقضي الليل فيها معه !!!

لكن نبيل ، لم يكن يدري إنه وهو سابح فوق سحابات سعادته المزيفة تلك . . . كان مسوقاً إلى الخطوة التالية ، كان مسوقاً إلى قدره الذي ارتضاه ، بل وسعى إليه !!

* * *

الفَصل الحَادي عَشر

الضربة القاضية !

عندما غادرت سامية فهمي مبنى المخابرات العامة المصرية في ذلك اليوم الثالث الذي التقت فيه بعادل مكي ، كان الوقت لا يزال مبكراً . . . أوصلها الحارس حتى البوابة الرئيسية فخرجت إلى الطريق لا تعرف إلى أين تذهب . . . قطعت المسافة فيما بين المبنى وميدان القبة في دقائق لا تعرف إن كانت قد طالت أم قصرت ، زحفت في سيرها عابرة مزلقان السكة الحديدية منحدرة إلى الطريق الرئيسي الذي يصل العباسية بمصر الجديدة . . . كان الجو حاراً وعدد السيارات قليل والطريق شبه خال والحزن يخيم على المدينة كما كان يخيم على حياتها . . . لا تدري سامية فيمَ كانت تفكر في ذلك الوقت ولا كيف كانت تفكر . . . ازدحمت الأفكار في رأسها وتلاطمت كموج عاصف في بحر لا يستقر ، أخذت تستعيد ما حدث معها في إيطاليا فتقلصت معدتها وشعرت برغبة شديدة في القيء ، حاولت تفسير ذلك الغموض الذي اكتنف تصرفات نبيل فقادها تفسيرها إلى ما لا تحب ، حاولت أن تجد ، وسط عواصف الأفكار ، مَخْرَجاً دون جدوى ، أدركت في لحظة مخيفة أنها لا تزال تهرب من الواقع فهتفت بصوت مرتفع :

« هو أنا بادافع عنه ليه ؟!! . . . إذا كان مذنب يبقى مذنب ولازم ياخد جزاؤه !! » .

« أفندم ؟! » .

جاءها التساؤل بغتة من خارجها فالتفتت في ذعر . . . كان ثمة شاب متوسط الطول أسود الشعر واسع العينين راح يحملق فيها ، ارتبكت متسائلة :

« فيه حاجة يا أستاذ ؟! » .

« أبداً . . بس أنا اتهيألي إن سيادتك ناديتي عليَّ ؟! » .

أدركت أنها حدثت نفسها بصوت مرتفع فاضطربت :

« لا أبداً . . . أنا . . . أنا متأسفة ؟؟ » .

همت بالسير وإذا الشاب يرفع يده كمن يحاول أن يمنع شيئاً من السقوط !

« سيادتك مش عاوزة حاجة ؟! » .

« حاجة زي إيه ؟! » .

« أنادي لك تاكسي ؟! » .

أحست بدوار وزحفت الغيبوبة إلى وعيها فخطت نحو شجرة استندت إليها متمتمة :

« مش عارفة . . . مش عارفة ؟ » .

فيما بين اليقظة والغيبوبة جاءها صوته منادياً :

« تاكسي . . تاكسي ؟ » .

توقفت السيارة إلى جوارها واقترب منها الشاب :

« حضرتك رايحه فين ؟! » .

« مجلة الفجر ؟ » .

« تحبي أوصلك ؟! » .

« لأ . . . شكراً ؟؟ » .

خطت نحو السيارة فأسرع الشاب يفتح لها الباب ، ألقت بنفسها فوق المقعد الخلفي فأغلق الباب ودلف إلى المقعد المجاور للسائق :

« مجلة الفجر يا أسطى ! » .

مالت إلى الأمام مُسْتَفَزَّة وهي تسأله :

« حضرتك رايح فين ؟! » .

« نفس الشارع ، إذا ماكانش عندك مانع ! » .

« ارتد إليها وعيها في صدمة أيقظتها تماماً مما كانت فيه . . . اعتدلت في جلستها وقد استبد بها الرعب فلقد كانت السيارة قد تحركت فعلاً . . . زحفت السيارة عابرة نفق العباسية منحرفة إلى اليمين فقطع الشاب الصمت متسائلاً :

« سيادتك بتشتغلي في مجلة الفجر ؟! » .

« أيوه !! » .

« ممكن أطلب منك طلب ؟! » .

تساءلت في جفاء وهي تتحفز استعداداً لما لا تدري :

« طلب زي إيه ؟! » .

« تعرفي الآنسة سامية فهمي ؟! » .

« هه ؟! » .

« إنتوا مش معاكم محررة اسمها سامية فهمي ؟! » .

« أصبحت في ذروة وعيها ويقظتها وتوترها معاً . . . انتبهت كل حواسها وهي تسأله :

« سامية زميلتي . سيادتك تعرفها ؟! » .

« لأ . . . أنا من قرائها ! » .

« أهلاً وسهلاً ! » .

« ممكن تبلغيها إعجابي الشديد بالتحقيقات اللي بتعملها ؟! » .

كمن يغتسل بعد طول عناء قالت سامية :

« أقول لها مين ؟! » .

« حسنين عبد ربه مهندس زراعي من البحيرة ! » .

هتفت سامية دون وعي :

« انت اللي اتخانقت مع المحافظ ؟! » .

بدت الدهشة على وجهه فاستدار نحوها بكليته :

« بصراحة لولا شجاعة الآنسة سامية مكانش ممكن ارجع لمركزي تاني ! » .

وتذكرت سامية ما حدث منذ شهور قليلة قبل سفرها المشؤوم إلى إيطاليا .

في لحظة أشرقت فيها الحياة في صدرها من جديد تذكرت !

قالت للشاب إنها قرأت خطابه الذي نشرته سامية ، قالت إن الناس يجب أن يواجهوا الخطأ وأن يحاربوه ويعترضوا طريقه مهما كان المخطىء . . . راحت تثرثر معه وقد اجتذبها حديثه كما اجتذب السائق الذي شارك في الحوار . . . فمنذ شهور جاءها خطاب من مهندس زراعي اختلف مع المحافظ فنقله هذا إلى مكانٍ ناءٍ . . . فما كان منها إلا أن نشرت الخطاب مشفوعاً بتعليق يُذَكّر المحافظ بأن مصر لم تعد عزبة . . . قبل مضي أسبوع عاد الموظف إلى وظيفته الأولى . . . وها هو ذلك المهندس أمامها بلحمه ودمه وكان سعيداً بما حدث وكانت سعيدة بالحوار فأحست بأن روحها تُرَدُّ إليها بعد طول غياب ، شعرت أنها تصعد إلى سطح الحياة بعد أن دفعها القدر إلى قاع يأس مدمر . . . توقفت السيارة أمام المجلة فغادرتها وغادرها المهندس الزراعي حسنين عبد ربه ، حاولت أن تدفع أجر التاكسي لكن الشاب أصر على الدفع ضاحكاً :

« أصلنا لا مؤاخذه فلاحين ، وتبقى عيبه كبيرة في حقي لو خليتك تدفعي حاجة ! » .

« ابتسمت شاكرة ومضى التاكسي . . . سألها الشاب فجأة وكأنه يعود بالحديث إلى مساره الأصلي .

« إنتي كويسه دلوقت ؟! » .

نظرت إليه ساهمة فابتسم معتذراً :

« يظهر إنك كنتي تعبانة شويه ! » .

« مش شويه يا باشمهندس ، أنا كنت تعبانة قوي ! » .

« ودلوقت ؟! » .

مدت يديها مودعه :

« الحمد لله . . . أنا متشكرة قوي ! » .

تساءل في خجل :

« طيب . . . مش أتشرف بالاسم ؟! » .

« قالت في اضطراب :

« سامية فهمي !! » .

ثم استدارت مهرولة صاعدةً درج المبنى .

* * *

« تصوري يا سامية . . . أنا ومراتي كنا في سيرتك النهار ده الصبح ! » .

هكذا هتف أحمد مختار رئيس التحرير عندما دخلت مكتبه .

« خير يا أستاذ أحمد ! » .

« أبداً . . . كنت باكتب الافتتاحية لما افتكرت يوم ٩ يونيو ! » .

وكأن الأمر مؤامرة هدفها إعادة التوازن إلى نفسها ، تساءلت وهي تتذكر تلك الليلة العصيبة وما فعلته وما فعله الآخرون وكأن الأمر لم يمضِ عليه عام . . . تجمعوا أمام التلفزيون في قاعة المجلة الكبيرة انتظاراً لخطاب الرئيس جمال عبد الناصر . . . ألقى الرجل خطابه متنحياً عن كل ما يشغله من مناصب . . . هاجت الدنيا وكأن الهواء اشتعل بنار غامضة ، تحدث الكل إلى الكل وكانت هي تصرخ : « لأ . . . لأ . . . لأ . . . ! . . . » ، اندفعت تشق طريقها وسط المحررين والعمال الذين أوقفوا المطبعة وصعدوا إلى المكاتب هاتفين مطالبين الرجل بالبقاء . . . وصلت إلى باب مكتب أحمد مختار فاقتحمته . . . ما إن خطت إلى الداخل حتى تسمرت في مكانها ذاهلة !!

كان أحمد مختار يجلس على مقعده ملقياً برأسه إلى الخلف ، بجواره كان الراديو لازال مفتوحاً وهو يرسل موسيقى عسكرية . . . على وجنتيه كان الدمع يتحدر في سرعة وغزارة أذهلت سامية لثوانٍ لكنها سرعان ما تساءلت في غضب هائل :

« إيه اللي انت بتهببه ده يا أستاذ أحمد ؟! » .

التفت مختار نحوها فبدا وكأنه شاخ فجأة . . . كأن عشرات السنين قد أضيفت إلى عمره فبدت عيناه غائرتين . . . لم يرد عليها فعادت إلى الصراخ :

« إنت بتبكي ؟! » .

جذب صراخها عدداً من المحررين فتجمعوا أمام الباب .

« بدل ما تبكي إنزل الشارع وقول رأيك ! » .

ظل مختار جامداً في مكانه وكأنه تلقى صفعة أدارت رأسه . . . اندفعت مغادرة المكتب تشق طريقها وسط الزحام فاصطدمت في اندفاعها بفريد الشاعر :

« على فين يا سامية ؟! » .

التفتت نحوه وكان الجميع يحملقون فيها ، أدارت بصرها فيمن حولها فإذا هناك عيون عيون عيون . . . قالت بصوت ثابت وإن اختنق بعبرات صادرتها إرادة بدت للجميع حديدية :

« إذا كان الريس عاوز يتنحى هو حر . . . بس مش دلوقت . مش دلوقت ! » .

همت بالحركة فصاح فريد :

« رايحة فين ؟! » .

« للناس !!! » .

اتجهت إلى السلم دون انتظار للمصعد ، راحت تهبط مهرولة وكان الجميع يهرولون خلفها هابطين ، هاتفين ، صارخين . . . عند باب الدار كان الطريق قد امتلأ بالناس . . . دفعها الذين تبعوها فهبطت إلى الشارع وذاب الكل في الكل . . . مئات ، ألوف ، مئات الألوف كانوا يزحفون وسط الظلام المفروض على المدينة الحزينة . . . لا أحد كان يعرف إلى أين ينتهي الزحف ، فقط ، كانوا يهتفون ويطلقون الحناجر بالأغنيات الوطنية . . . لا أحد يعرف أحداً ، لا

شيء سوى بحر من البشر منبعه في الشوارع والحواري والبيوت . . . وصلت إلى ميدان التحرير وكان يفيض بمن فيه . . . تعالى صوت أزيز الطائرات الإسرائيلية في سماء القاهرة فازداد حماس الناس وازداد اندفاعهم . . . انفجرت في السماء بضعة قنابل تطارد الطائرات فلم يتوقف أحد . . . ظلوا يزحفون مخترقين المدينة إلى شارع رمسيس . . . كان الليل قد أوغل والناس كتلة متراصة تهتف حناجرها مطالبة عبد الناصر بالبقاء . . . كانوا الآن قد عبروا نفق العباسية زاحفين نحو منشية البكري حيث يعيش الرجل ، عندما التفتت سامية ذات لحظة ، كي ترى أحمد مختار وسط الناس يهتف وينشد لمصر . . . تلاقت العيون في لحظة ، ثم امتدت الأيدي كي تتشابك ، فتشابكت ، على الفور أيدي الجميع .

« كانت ليلة ! » .

هكذا قالت وكان أحمد مختار قابعاً خلف مكتبه يمعن النظر إليها .

« ما لك يا سامية ! » .

كان سؤاله طبيعياً ، وإن كانت قد أحست بضرورته .

« تعبانة قوي يا أستاذ أحمد ! » .

« ما تروحي إسكندرية كام يوم ! » .

« مش عاوزه ! » .

« مش مهم إنتي عاوزه إيه ، المهم إنتي محتاجة لإيه ؟!

نهضت وهي تشد قامتها وتتنفس ملء صدرها .

« أنا محتاجة إن سامية بتاعة ٩ يونيو ترجع تاني ! » .

أشرق وجه مختار بابتسامة رأت فيها السعادة مزغردة !

« إنت كنت قلقان عليّ يا أستاذ أحمد ؟! » .

« لأ !! » .

قالها في حسم واضح . . . ابتسمت فأردف :

« اللي زيك ما يتخافش عليه يا سامية ! » .

خنقتها العبرات فاستدارت نحو الباب :

« عن إذنك !! » .

... ...

... ...

ما كادت تغادر مكتب مختار حتى وجدت فريد الشاعر أمامها ، هتف :

« سامية ! » .

ابتسمت وقد تحجر الدمع في عينيها !

« إنتي فين ؟! » .

جاءها سؤاله مغموساً في حب صارخ ، سألته :

« قلقان عليّ ؟! » .

« قوي !! » .

« وإذا قلت لك ما تقلقش ؟! » .

« حاقلق أكثر ! » .

أدركت سامية فهمي ، الآن ، وهي تقف في أحد ممرات مجلة الفجر ، أنها هُزِمتْ أمام الجميع ، وأن نبيل سالم الذي أعطته ما لم تعطه لأمها ، خذل سنوات حبها بأبشع وسيلة ... راحت تهبط الدرج وفي قلبها حسرة وحزن ... لكنها كانت قد اتخذت قرارها !

* * *

« عادل بيه ؟! » .

« أهلاً سامية ! » .

« أنا ممكن أشوف سيادتك إمتى ؟! » .

« لما تبقي عاوزه ! » .

« أنا عاوزه دلوقت ! » .

ساد الصمت على الطرف الآخر لثوانٍ ، كانت قد غادرت عادل مكي منذ أقل من ساعتين جاءها صوته عبر الأسلاك :

« ما ينفعش أشوفك بعد بكره ؟! » .

« ينفع وقت ما تحب ! » .

« استبينا .. بعد بكره في نفس الميعاد ! » .

أعادت سماعة التليفون إلى مكانها وتنفست الصعداء ... كانت الآن في البيت وحدها ... ملأت صدرها بشهيق عميق ، ثم هتفت بصوت مرتفع :

« دلوقت أقدر أتكلم مع نفسي من غير ما حد يسمعنا ! » .

راقت لها الدعابة فابتسمت وهي تجلس على أقرب مقعد ، عادت إلى الحديث :

« أنا خايفة إلا نبيل يطلع خاين ... مش كده ؟! » .

من داخلها اندفع صراخ محموم :

« ما هو خاين يا سامية ! » .

وانفجرت فجأة في بكاء أفرغت فيه كل آلامها !!

* * *

كان عادل مكي ، عندما طلبته سامية بالتليفون ، غارقاً في تحليل خطابات نبيل إليها ... كانت الأمور تتضح أمامه ودائرة الغموض تتبدد ... أرسل الخطابات الأصلية إلى المعامل المختصة واحتفظ لنفسه بصورة منها فراح يقرأ في تأنٍ !

كان من الواضح له تماماً ، أن الإسرائيليين عرفوا قدرات نبيل سالم منذ البداية ، فراحوا يجهزونه للدور الذي اختاروه له ... سيطرت عليه لويز جولدمان ـ أو شيرلي هايمان ـ سيطرة عاطفية كاملة ... وفي الحقيقة ـ لأن الحقيقة لابد أن تذكر ـ فلقد أحب نبيل تلك الفتاة الإسرائيلية الماكرة حباً ملك عليه حواسه وعقله جميعاً ... كان فاقداً للثقة بنفسه فراحت تدفعه إلى

استعادتها رابطة تلك الإستعادة بوجودها ذاته . . . ولقد قال لي عادل مكي شارحاً الأمر : إنه في تلك الفترة كان الإسرائيليون يختبرون قدراته . . . وهو لم يكن يصلح لتسقط الأخبار من مصر ، فهذا يحتاج إلى علاقات واسعة ومتشعبة ، كانت كفيلة بأن تثير الشبهات من حول الشاب الذي لم يكمل تعليمه . . . ولا بد أن علاقة نبيل بموظفي الشركة ، وتلك العلاقات الحميمة التي كان يقيمها مع السائحين حتى أن بعضهم كان يستعين به في قضاء أمور خاصة . . . لا بد أن هذا أوحى لرجال الموساد بقدرة نبيل الفذة على اجتذاب الآخرين . . . وكان هذا بالضبط ، هو ما استقر عليه رأيهم . . . أن يكون « صياداً » ، أو كما يطلقون عليه بالإنجليزية اسم « Spotter » . . . ولقد كان من الممكن أن يبقى نبيل في ألمانيا كي يمارس تلك اللعبة فيها . . . لكنهم ، وقد أعدوا له مخططاً جهنمياً ، فضلوا أن ينتقل بنشاطه إلى مكان آخر ، إلى دولة أخرى . . . وأن يكون أسلوب الانتقال هذا ، هو القيد الحديدي الذي يُقَيِّده إليهم ويربطه بهم ، ويكمل سيطرتهم عليه !!

... ...

... ...

غير أنه كان لا بد للأمر من أسباب أخرى ، وليست لدينا أدلة قاطعة تثبت هذا الذي نظنه . . . غير أن التحليل والمنطق ، لا بد وأن يصلا بنا إلى نتيجة قريبة من الواقع !

فهل كان من الممكن ـ مثلاً ـ أن تظل علاقة نبيل سالم بلويز جولدمان ، التي عرفها تحت اسم شيرلي هايمان ، إلى الأبد ؟!

لم تكن شيرلي ـ بالنسبة للموساد ـ فتاة عادية من الممكن أن تؤدي دوراً واحداً ثم تمضي إلى حال سبيلها حتى يحتاجون إليها مرة أخرى ، كما كان الحال مع عشرات الفتيات الأوروبيات اللواتي استعملن ـ وهن لا يدرين ـ في تلك السنوات للإيقاع بالشباب العرب . . . لكنها كانت فتاة لها وزن خاص وخبرة ليس من السهل تعطيلها . . . وأغلب الظن أنهم اختاروها لخبرتها السابقة

تلك ، حتى تحكم السيطرة على نبيل إلى أن تحين اللحظة المناسبة . . . ثم إذا ما انفصلت عنه ، بدا انفصالها أمراً طبيعياً لا يثير في نفسه الشكوك !

كان نبيل الآن قد استقر في ذلك المسكن الجديد الذي تحول إلى عش غرام مارست فيه لويز جولدمان كل قدراتها كي يرتبط بها هذا الشاب التعس ارتباطاً لا فكاك منه . . . وكان عمله في الشركة يسير على ما يرام ، فحصل في الأسابيع الأخيرة على مكافأة أضافت إلى رصيده المزيد من الماركات الألمانية . . . أما علاقته مع أبي سليم ، فكانت قد وصلت إلى ذروة في الدقة . . . تعوَّد نبيل أن يطيع أوامر أبو سليم دون مناقشة ، ثم . . . وبرغم كل الضغوط التي مارستها شيرلي هايمان عليه ، إلاّ أنه ـ أبداً ـ لم يبح لها بسر حقيبة المخدرات تلك التي كان يلتقطها من الأوتوبيس في أعقاب رحلات معينة يقوم بها مع سائحين من كل أنحاء العالم ، لم يبح بالسر أبداً ، وكان بارعاً في التخلص من أسئلتها التي كانت تلاحقه . . . ولقد جعل هذا ثقة أبو سليم تتأكد فيه ، كما جعلته ـ من وجهة النظر الأخرى ـ جاهزاً للخطوة التالية !

غير أن الأمر بطبيعة الحال لم يكن ليقتصر عند تهريب المخدرات ، فلقد كان هذا ـ بالتأكيد ـ أمراً مزيفاً . . . ولم يكن أبو سليم ليقامر بوضع مخدرات في تلك الحقيبة التي كان نبيل يستبدلها بحقيبته في الأوتوبيس السياحي ، فذلك أمر غير وارد بالمرة . . . إنما كان المراد اقناع نبيل سالم بذلك حتى تتم السيطرة عليه ـ في الوقت المناسب ـ وبشكل مطلق !

وفي تلك الأثناء ، وقعت حرب الأيام الستة ، وجاءت نكسة يونيو ١٩٦٧ بالنسبة لنبيل وكأنها طوق الخلاص من بقايا ضمير كانت تحيا في وجدانه ، وراح أبو سليم يُغَذِّيه ـ كسوري وعربي ـ بكل ما كان عليه أن يردده وسط شباب العرب في هامبورج الذين كان نبيل يلتقي بهم بين الحين والحين ، مما دفع بعض المصريين إلى الاشتباك معه بالكلمات ، ثم بالأيدي !! . . . وعندما قص ما حدث ـ وكان لا بد وأن يفعل ـ على أبي سليم ، انهال عليه هذا باللوم والتقريع ، فصاح نبيل :

« إذا كان كل واحد فيهم له رأي . . . أنا رأيي كده ! » .

« احتفظ برأيك لنفسك يا نبيل ! » .

« يعني أجاريهم في الكلام الفارغ اللي بيقولوه ؟! » .

« لا تجاريهم ولا تقف في وشهم ! » .

« يعني إيه ده بقى ؟! » .

« اسمع منهم ، وخليهم يقولوا أكثر . . . ولما نتقابل ، تقول لي ! » .

وهكذا راح أبو سليم يعلمه الخطوات الأولى في ذلك العلم المعروف في عالم المخابرات ، وهو علم الإثارة ، الذي يدفع من أمامك إلى قول ما لا يريد أن يقوله أو يبوح به إن كان لديه ما يخفيه أو يحرص على كتمانه . . . وهكذا انضبطت الأمور تماماً . . . وبدت الحياة لنبيل وكأنها تهبط على أرض استقرار دفعه لأن يطلب من شيرلي هايمان الزواج !!

ولست أعتقد أن الأمر كان مفاجأة لتلك الفتاة ، أو لرؤسائها . . . وعلى كل ، فهي لم ترفض طلبه ، وإنما طلبت منه مهلة للتفكير !

ولقد مضت أيام بعد أيام وهو ينتظر منها رداً ، حتى إذا كان ذات مساء ، وكانا يجلسان في مسكنه أمام المدفأة بعد أن تناولا وجبة شهية أعدتها شيرلي بيديها ، سألها نبيل عن السر في ترددها ، فغمغمت في صوت متكسر :

« لأني أخشى أن أفقدك ! » .

صاح نبيل مستنكراً :

« تفقديني لأني أريدك زوجة ؟! » .

« وماذا عن صديقتك المصرية ؟! » .

« قلت لك عشرات المرات إن سامية فهي ليست سوى ألعوبة مسكينة ! » .

« ثم إنك مصري ! » .

همَّ ، بالحديث فانتفضت وكأن هناك ما يعذبها مردفة :

« ومسلم !! » .

« وماذا في ذلك بالله عليك ؟! » .

« فيه إني يهودية الديانة ! » .

مضت لحظة صمت اندفع بعدها نبيل كي يحتويها بذراعيه :

« وماذا في ذلك أيضاً ؟! » .

« إنكم تحاربون قومي في إسرائيل ! » .

« هم الذين يحاربون قومك ، لكنني لا ولن أحاربهم ! » .

« هل تعد بذلك ؟! » .

« أعد بذلك وأقسم أيضاً أني أبداً لن أحاربهم ! » .

. . . . ولقد صحبته شيرلي في تلك الليلة إلى جنة لم يحلم بمثلها أبداً ، لم تعلن موافقتها لكنها قادت السفينة إلى حيث تحب وتشتهي . . . وفي الصباح التالي ذهبا إلى الشركة معاً وكأنهما يعلنان للناس علاقتهما ، كان نبيل مفعماً بسعادة فاضت بها كل ملامحه . . . ولقد كان عدد السائحين في ذلك الوقت من السنة ، بالضرورة ، قليلاً . . . كانوا مجموعة من مواطني دول اسكندنافيا جاءوا إلى ألمانيا كي يقضوا بها أياماً في الدفء !!! . . . وكان نبيل الآن قد أتقن الألمانية كالإنجليزية وأصبح خروجه مع سائحين من جنسيات مختلفة أمراً وارداً . . . انتهى اليوم وكانت هناك حقيبة محملة بالمخدرات استبدلها نبيل بحقيبة أوراقه . . . أخذ ينهي إجراءات وصوله استعداداً للذهاب إلى خزينة محطة السكة الحديدية كي يودع الحقيبة بها . . . اعترضت لويز طريقه وكان يوم عملها قد انتهى ، بدت له مشبوبة العاطفة مقبلة عليه . . . سألته إلى أين فحاول الإعتذار بموعد مع صديق لكنها ـ وقد تظاهرت باشتعال الغيرة في صدرها ـ أبت أن تتركه ـ وإذا كان الموعد مع صديق فعلاً فلِمَ لا تذهب معه إلى هذا الموعد الذي يبدو لها شديد الانتظام ولا يأتي إلا بعد جولة يقوم بها مع السائحين والسائحات ولا بد أن في الأمر واحدة من بنات الثلوج في الشمال . أسقط في يد نبيل وقد أدرك أنها لن تتركه . . . كان ذهابه إلى المحطة وإيداع الحقيبة في الخزينة أمراً مستحيلاً بكل المعاني . . . لم يكن أمامه ـ في مواجهة إصرار شيرلي الملتهبة بالحب منذ ليلة الأمس إلاَّ أن يؤجل إيداع الحقيبة في الخزينة مع ما في هذا من مخالفة لتعليمات أبي سليم ،

وأن يصحب الفتاة المولعة بحبه إلى مسكنه . . . وكانت الحقيبة المحملة بالمخدرات ، في يده !!

. . . .

. . . .

كانت ذكرى الليلة السابقة تعطر خياله ، وكانت لويز جولدمان بين ذراعيه تذيقه من رحيق الحب ما كان يجعله أكثر شراهة . . . عندما سمع دقاً على الباب !

فكر في ألا يجيب على الطارق لكن الدق عاد من جديد كي يوقظه من أحلامه . . . همست الفتاة في شفتيه أن يرى من الطارق حتى لا يزعجهما إلحاحه . . . نهض إلى الباب ، وما أن فتحه حتى وجد من يدفعه في عنف وإذا ثلاثة رجال يقتحمون البيت وكانوا يرتدون المعاطف والقبعات . . . خطا نبيل إلى الخلف وقد سقط قلبه بين ضلوعه وأدرك أن الضربة القاضية قد حانت وأن عليه أن يقاوم . . . سأله كبيرهم في جفاء :

« هل أنت نبيل سالم ؟! » .

« نعم أنا . . . ماذا تريدون ؟! » .

« هل تسكن هنا ؟! » .

« نعم !! » .

حاول جاهداً أن يسترد جأشه ولكن الرجل أومأ إلى زميليه فأغلق أحدهما الباب ثم اندفعا إلى المسكن يفتشانه . . . صاحت شيرلي وهي تلملم نفسها محتجة :

« أنا مواطنة أمريكية ، من أنتم ، وماذا تريدون ؟! » .

أومأ كبيرهم برأسه نحوها سائلاً نبيل :

« هل هذه الفتاة صديقتك ؟! » .

« إنها زميلتي في العمل !! » .

في تلك اللحظة عاد أحد الرجلين إلى الرجل الكبير وهو يحمل في يده

حقيبة المخدرات نظر إليه الرجل طويلاً ثم سأله :

« هل هذه الحقيبة تخصك ؟! » .

ضاع صوت نبيل وهو يحاول جاهداً أن يرد :

« لا بد أنها هي !! » .

لمع الشك في عيني الرجل :

« ماذا تعني ؟! » .

ارتبك نبيل ، أرتج عليه ، تلجلج وهو يتمتم بأنها حقيبة أوراقه ، وأنها تخص الشركة !

« هل لك أن تفتحها ؟! » .

ألقى إليه حامل الحقَيبة بالحقيبة فحاول أن يفتحها دون جدوى . . . كان مدركاً أنه لا يعرف الأرقام السرية الخاصة بفتحها . . . صاحت شيرلي :

« هل نسيت أرقام حقيبتك يا نبيل ؟! » .

وكانت نظرته إليها فيها من الاستعطاف ما لم يخف على الرجل . . . صاحت مندفعة إليه :

« نبيل . . . ماذا في هذه الحقيبة ؟! » .

كاد يصرخ فيها أن تصمت عندما أمر الرجل أحد رجليه بفتح الحقيبة عنوة !

فتحت الحقيبة ، فإذا هي ممتلئة حتى حافتها ، بالمخدرات !

كاد نبيل يسقط مغشياً عليه ، وكان الرجل يقول :

« هر سالم . . . إني اقبض عليك بتهمة الإتجار في المخدرات ، ولعلك تعلم أن من حقك ألا تتحدث إلاَّ في وجود محام . . . وأن أية كلمة أو تصرف ، سوف يؤخذان عليك من الآن ! » .

- يليه الجزء الثاني -